الدين والدولة العصرية

محمود الشرقاوي

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٢١٥١٠

مقـــدمة

الاسلام دين عام شامل ، يتناول شئون الحياة جميعا ، ونظام كامل ينظم أمور الدين والدنيا معا ، قام بنشره والدعوة اليه الهداة من السلف الصالح ، فنجحوا فى تزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، بقدر ما أصلحوا من دنيا الناس ، وبلغوا فى ذلك شأوا لم ينله أحد من المصلحين ، أو كبار الفلاسفة المربين .

فليس من الصحيح اذن ، ما يزعمه بعض كتاب الغــرب من أن الاسلام هو المسئول عن تخلف بعض المسلمين عن المدى الذى بلغته بعض الشعوب الغربية ، بل المسئول هم المسلمون أنفسهم ، والدول الغربية المستعمرة .

ذلك ان الاسلام فى القرون الأولى كان الدستور العام للمسلمين فكفل لهم العزة والمنعة ، والسيادة والحضارة ، وصـــيرهم رواد العالم الى العلم والفكر والمدنية . وما زالت الدراسات الغربية(١) المنصفة تشيد بفضل المسلمين الذى لا يمكن انكاره . فلو أن الاسلام كان معوقا عن الرقى والتقـــدم لعجز أتباعه عن أن يبلغــوا المركز الممتاز الذى بلغوه ، وما استطاع أن يخرج من أبناء الصحراء ساسة العالم وهداته ، وأساتذته فى أقل من قرن واحد .

ونظرة عجلى على التاريخ الاسلامى ، بعد القرون الثلاثة الأولى تبين لنا أن المجتمعات الاسلامية قد تحللت من المثل والمبادىء التى

(١) راجع على سبيل المثال : حضارة العرب لجوستاف لوبون ، وروح الحضارة العربية لهانز هيترش شيدر ، وشمس العرب تسطع على الغرب ـ أثر الحضارة العربية فى أوربا لزيغرد هونكه .

جاء بها الدين القيم ، فتفرقت بعد وحدة ، ووهنت بعد قوة ، وتقسمت الدولة الكبرى الى امارات ودويلات ، يحارب بعضها بعضا ، ويستعين بعضها على بعض بأعداء الاسلام .

وكان هذا التفرق هو الذى أطمع فيهم المغيرين من التتار ، والروم ، والقوط ، فهجموا على ديارهم ، وخربوا ما شاده المسلمون وعوقوا تقدمهم .

ثم جاء الاستعمار الغربى المتستر بصليب المسيح — وهو أبعد ما يكون عن تعاليم هذا المعلم العظيم — فشن حربا ضروسا على المسلمين ، فزادت المسلمين وهنا على وهن ، وضعفا على ضعف .

ولم يكد المسلمون يفيقون حتى جاء الاستعمار الغربى الحديث، فأعمل معاوله الهدامة فى كيان المسلمين من دين وأخلاق وعلم واقتصاد ، فلم يتوقف المسلمون عن التقدم فحسب ، بل رجعوا القهقرى ، وارتدوا على أعقابهم ، على حين كانت الأمم الغربية تشق طريقها الى الأمام .

فالتبعة اذن على الاستعمار ، وعلى المسلمين ، لا على الاسلام ، ولو أن الاسلام هو المسئول عن ضعف أتباعه لما تقدم المسلمون فى مجالات الحياة عندما كانوا يسيرون على هدى القرآن المجيد ، ولما تأخروا حينما تهاونوا فى الاهتداء بتعاليمه .

*****

ان العالم حيث بلغ اليوم فى مسيره ، والحضارة حيث هى فى طريقها فى هذه المرحلة من التاريخ ، ينتظران الأمة التى تقوم بالدور البطولى فى هذه العقدة من مسرحية التاريخ البشرى ، تلك الأمة التى لا تعمل بدافع الأنانية والأثرة ، ولا طمعا فى مكاسب تحرزها لنفسها من أرض تضم لها ، أو شعوب تحكمهم ، لتجعلهم سوقا لبضاعتها ، أو موردا رخيصا لشراء موادها الأولية ، ولكنها تعمل بدافع من الاشفاق على الانسانية ، ورغبة فى تحقيق سعادة البشر .

والأمة الاسلامية مدعوة اليوم للقيام بهذا الدور ، بعد أن أفلست الحضارة المادية فى توفير الأمن والطمأنينة والسلام للانسان .

يقول الفيلسوف الألمانى شبلنجر فى كتابه « أفول الغرب » :

« ان الحضارة الأوربية طغت فيها المادية على الروح ، وهذا بداية النهاية لها ، رغم ما تخدع به البصر ، من التقدم العمرانى والمادى .

ويقول :

« وما مرحلة الحضارة الحالية الا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى ، فهى سائرة بخطى واسعة الى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة ، تلك هى سنة الوجود ولا راد لأمر الله »

وكما أحس الفيلسوف الألمانى بالخطر على مقومات الانسان وكينونته من الحضارة الصناعية المادية ، كذلك أحس « جون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق بالخطر على الولايات المتحدة ، وعلى العالم الغربى من الحضارة المادية .

يقول دالاس فى كتابه « حرب أم سلام » :

« ان هناك شيئا ما يسير بشكل خاطىء فى أمتنا ، والا لما أصبحنا فى هذا الحرج ، وفى هذه الحالة النفسية .. لا يجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا ، وأن يتملكنا الذعر .. ان ذلك أمر جديد فى تاريخنا ! !

ان الأمر لا يتعلق بالماديات فلدينا أعظم انتاج عالمى فى الأشياء المادية ، ان ما ينقصنا هو ايمان صحيح قوى ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت مقدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغ من قوتها .

فمتى شعر الناس بالحاجة الى الاعتماد على الأشياء المادية فان النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا .

« وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الاخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها ، وهناك حيرة في عقول الناس وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادي — كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن — ولن تستطيع اى ادارة لمكافحة الجواسيس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف .

« .. لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التي يمكن ان يلتقي بها اى شعب ، وهو اختبار الحياة في رفاهية .

لقد قال يسوع : ان هذه الأشياء المادية سيحظى بها أولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله ، ومن أجل تحقيق عدالته .. ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر ، لأن هذه الأشياء المادية — كما أنذر يسوع — يمكنها أن تصبح الصدأ الذى ينخر في الأرواح .

... اننا نستطيع أن نتحدث ببلاغة عن التحرر والحرية ، وعن حقوق الانسان والحريات الأساسية ، وعن الكرامة والقيمة الانسانية للفرد . ولكن معظم حديثنا مشتق من فترة كان مجتمعنا فيها قائما على « الفردية » . ونتيجة لذلك فليس لها أثر كبير عند أولئك الذين يعيشون في ظروف يكون معنى الفردية فيها هو الموت المبكر !

ونستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادى الذى حققناه ، وعن روائع الانتاج الجماعي ، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتليفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا . ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطى البعض فكرة بأننا أفلسنا من الناحية الروحية .

لقد أخفقنا بشكل يدعو الى الرثاء في أن نرى أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية ، دون أن نمارس الالحاد والمادية ،

ان ذلك يعتمد على الرغبة الاختيارية للفرد فى قبول أو التخلى عن الالتزامات الاجتماعية تجاه الفرد الآخر .

ونتيجة لذلك فان كثيرا من قومنا قد فقدوا ايمانهم فى مجتمع حر ، وكأمة فقدنا كذلك ايماننا الدينى وممارسة شعائرنا الدينية ، رغم أننا ما زلنا متدينين ! اننا نفرق بين الدين وممارسة الايمان والعمل ، فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمى قوة روحية نستطيع نشرها فى جميع أنحاء العالم .

« .. ويجب أن نفهم بوضوح ان مجتمعا حرا ليس معناه مجتمعا يسعى كل فرد فيه لنفسه . بل انه مجتمع متناسق . . والقيود المفروضة هى قبل كل شىء ، روابط الأخوة المنبعثة من الايمان ، فان الناس خلقوا لكى يعيشوا اخوانا فى رعاية الله » .

ان الاسلام هو — وحده — القادر على انهاض الانسان ، وازدهار الحياة .

يقول العلامة « جيب » فى كتابه « مستقبل الاسلام » :

« ان الاسلام ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذى نفهمه اليوم من هذه الكلمة ، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس دينى ، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية » .

ويقول فاليرى :

« فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها ، لبعدها عن مدى الأفهام ، على حين كان الاسلام عجيبا فى سهولته ، صريحا فى فروضه ، وهذا كان سببا آخر فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقها كل الاضطراب، بما أصابها من الشك المضنى بعقائدها الدينية ، وهذا أيضا كان ولا يزال السبب فى انتشاره المتواصل بين الأمم فى آسيا وافريقية لنفوذه الى أرواحهم ، دون الحاجة الى التطويل فى شرحه والتلطف فى الدعاية له » .

ويقول ليود وروش :

« ان الاسلام دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية الا وجدته مشروعا فيه ، بل اننى عدت الى الشريعة التى يسميها « جول سيمون » .. « الشريعة الطبيعية» فوجدتها كلها أخذت عن الاسلام ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف ، فى عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب ، فالمسلم لا يظن بأحد سوءا ، ولا يستحل محرما فى طلب الرزق ..

.. ولقد وجدت فى الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم جميعا :

الأولى فى قول القرآن : « انما المؤمنون اخوة » . فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال . وهذا دواء الفوضوية » .

لقد وضع الاسلام للانسان منهج حياة كاملة ، حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها ، تستهدف رقى الانسان ماديا وروحيا ، وتحول الدنيا الى جنة وارفة الظلال ، يعيش الناس فيها سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

يقول الأستاذ توفيق الحكيم فى كتابه « تحت شمس الفكر » :

« فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير اسباب الحياة الصحيحة ــ والدنيا الصحيحة تمهد لآخرة صحيحة ــ فان الاسلام ــ بلا مراء ــ هو دين الصحة فى كل شىء ، فهو دين ذو صوت جهير فى الدعوة الى صحة الجسد والعقل وصحة العقيدة » .

ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فان مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وان نرده الى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء ، وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ، فان الدين المثالى هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الاسلام شريعة وهى لا تعرف رجال الدين ، ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن الدين مهنة تدر الرزق ، وتعطى متاع الدنيا .

ان أولئك الذين يجعلون من الدين سلما للدنيا — لا الدنيا سلما للدين — قد طردهم الاسلام بعيدا عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس ، لا احتراف فيه ولا احتكار !

ان رجال الدين فى الاسلام أناس لا سلطان لهم على أحد ، ولا ينقطعون للدين احترافا وارتزاقا كما ينقطع أمثالهم فى الديانات الاخرى ، بل يعيشون كما يعيش الناس ، يفتحون الحوانيت ، ويؤسسون المتاجر ، ويحترفون الحرف العامة الصانعة ، هكذا كان الأئمة الكبار أبو حنيفة ، والشافعى ، ومالك بن أنس .

انه لدين البساطة والسماحة والصراحة ، دين يحترم الكفاءات لا القداسات ، ويضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح ، سواء ارتدى أزياء الكهنوت أو تجرد منها ..

لقد جاءت مبادىء الاسلام لتصوغ المسلم قلبا وروحا ، وخلقا وسلوكا ، صياغة تجعله يحلق فى الأفق الأعلى ، وتحيله الى صورة حية لآيات القرآن العظيم ، وخلق الرسول الكريم .. صياغة تجعله طاقة كونية فعالة مهيمنة وموجهة لكل شىء .. طاقة عزيزة أبية

لا تذل ولا تضعف ، ولا تهن ولا تجبن تواجه الأحداث فى ثقة ، وتجاهد فى قوة ، وترفع رأسها فى عزة ، ولا تستسلم لرهبة أو رغبة .

((كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، ان الله لقوى عزيز)) .

❊ ❊ ❊

وهذا الكتاب الذى أقدمه للقارىء الكريم ، يبين فى صورة واضحة القسمات أن الاسلام يستهدف سعادة الانسان وتقدمه ، وازدهار الحياة ..

والاسلام هو الذى حمى الوطن الاسلامى فى الشرق من غزو التتار ، كما حماه من غزو الاستعمار الغربى المتستر بالصليب ، ولو انتصر الصليبيون ، ما بقيت قومية عربية ، ولا جنس عربى ، ولا وطن عربى .

والاسلام هو الذى كافح كفاحا مريرا فى الجزائر ، وهو الذى استبقى أرومة العروبة فيها ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة فى اللغة والثقافة ، حينما اعتبرت فرنسا اللغة العربية - فى الجزائر - لغة أجنبية محظورا تعليمها ! هنالك قام الاسلام - وحده - فى الضمير - يدمدم الأرض تحت أقدام الغزاة حتى ارتفعت راية الحرية فوق أرض الجزائر .

والاسلام هو الذى هب فى السودان فى ثورة المهدى الكبير ضد الاحتلال البريطانى فى مصر والسودان .

والاسلام هو الذى ناضل فى ليبيا ضد الغزو الايطالى ..

ويكشف اللورد ((جلادستون)) عن هذه الحقيقة فى كلمته التاريخية المشهورة فى مجلس العموم البريطانى :

« ما دام هذا القــرآن موجودا ، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان » .

ان الأمة الاســلامية اذا أرادت أن تســير في الطريق السوى ، وتتبوأ مكانها اللائق بها تحت الشمس ، عليها أن تتمسك بالقرآن العظيم ، وتتخذه دستورا لها في جميع مناحي الحيــاة . فالقرآن يهدى للتي هي أقوم ..

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ، والهادى الى ســـبل الرشاد .

محمود على الشرقاوى

القــرآن والأمة العربية

ان القرآن المجيد الذى يتلى آناء الليل واطراف النهــار ، فى جميع ارجاء العالم بلفظه العربى ، يحمل الأمة العربية قبل غيرها — واكثر من غيرها من الأمم — مسئولية ضخمة أمام الله العلى القدير، وتحتاج هذه المسئولية الى تنبه ووعى والى استعداد وعمل دائم والى نضال مستمر وكفاح مرير ، ذلك أن هذا الكتاب العظيم جاء بمبادىء انسانية فخاطب الناس جميعا دون تخصيص ، وذكر فيها الانســـان أى انسان فى مراحل خلقته واطوار تكوينه وفى طبــائعه ونفسيته واتى بمفاهيم انسانية للحق والعدل والخير .

يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شــعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول جل جلاله :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ».

هذا الكتاب العظيم فى تعاليمه . العالمى فى دعوته قضت حكمة الله سبحانه وتعــالى أن يبــدأ تبليغه لأمة بعينها وأن ينزل أولا فى جــوها ووســــطها وبين أفرادها وان يصاغ بلغتها وتعابيرها ، وان تكون هى التى تعيه أولا ثم تبلغه للناس جميعا فى شــتى بقــاع الأرض .

لقــد أصبح بين القــرآن — ذلك الكتاب الالهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — وبين الأمة العربية صلة خالدة

لا تفصم ورابطة سرمدية لا تفك ، وهى الصلة بين رسالة عالمية ، وامة مبلغة ، ولغة معبرة .

وقضت ارادة الله أن يكون الرسول العالمى الانسانى المبعوث رحمة للعالمين من بين هذه الأمة العربية :

((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين (١))) . (آل عمران ١٦٣)

وفى كل ذلك تقدير لشأن العرب السياسى ، وغير السياسى بما لا يحتمل مراء ، أن العرب (٢) مدعوون بالهام القرآن الى تحمل واجب هذه الشأنية ، التى لا يرى فيها بقية المسلمين غضاضة ، لأنها من ملهمات كتابهم المقدس ، ولأنها لا تعنى استعلاء ، ولا اذلالا ولا استغلالا ، لأن تميز العرب هذا مقيد بقيود القرآن والسنة التى تحفظ لكل مقامه ، وتؤدى لكل ذى حق حقه ، بل ان هذا التميز ، ما كان للعرب الا بالاضافة الى الاسلام ، الذى أشرق أول ما أشرق فى صميم بلادهم . وتنزل على رسول منهم حمل عبئه واوذى فى سبيله ، وبذل له من ذات نفسه ، وخاطب اول ما خاطب قومه العرب ، رباهم عليه حتى خالط نفوسهم ، وامتزج بمشاعرهم ، وانطبعت بطابعه حياتهم كلها .

تذوقوا هديه ببصيرة وعقل ، فجعلوه لهم ناموسا ، واستجابوا لأمر الله الذى شرفهم بالقوامة عليه ، فنشروه فى الآفاق دستورا انسانيا عاما ، لقد انخلعوا فى سبيله من ملكيتهم لأنفسهم ، ونذروها

---

(١) قال البيضاوى فى تفسير الآية : من انفسهم ، اى من نسبهم أو من جنسهم عربيا ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله فى الصدق والامانة .

(٢) محمد عزة دروزه : الدستور القرآنى فى شئون الحياة ، ص ٩٢ .

الله ، وجندوا رجولتهم كلها ، وخصائصهم كلها ، وطاقاتهم كلها ، وساروا بمعادن نفوسهم التى صهرها أتون الصحراء ، وصاغها الاسلام على أبدع نظام ، وصقلتها صحبة الرسول وقيادته ، كافحوا ينقذون البشر من عبودية البشر ، وانطلقوا يعاملون الناس بالرفق ويدعونهم الى النجاة .

كان أهل الأرض (١) يوم قام الرسول يهدى من الضلالة وينقذ بمكانة من الجهالة — كما قال على بن أبى طالب — مللا متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف مشتتة ، بين مشبه الله بخلقه ، أو ملحد فى اسمه ، أو مبشر الى غيره ، ضلالا فى حيرة ، وخابطين فى فتنة ، فقد استهوتهم الأهواء ، واستنزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى فى زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل ، وأرسل الرسول على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعزام مبين الفتن ، وانتشار من زلزال وتلفظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور .. جمع الاسلام من شمل العرب تشتتهم ، وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها ، وهذب نفوسهم حتى سلس قيادهم بعد شماسة ، وثقفهم ثقافة أفادوا بها ففادوا بالأهل والوليد ، والنفس والمال فى نصرة دينهم ، فامتن الله تعالى عليهم بقوله :

((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون)) .

الناس أصبح هذا حالهم لا يستعظم عليهم ان يفتحوا فى سنين قليلة الشام والعراق وفارس ومصر والجزائر والروم والسند

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية : جـ ١ ، ص ١٣٥ .

وبخارى والمغرب والأندلس وجزر البحر الأبيض ، وان يضعوا الجزية على ملك الصين ، والتوفيق حليف رايتهم اينما حلت ، ويخطىء من يدعى أن العرب كانوا نصف متوحشين او نصف متمدينين حين خرجوا من جزيرتهم ففى تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما يدحض هذه الفرية .

قال الرسول الأعظم لجنده :

« انطلقوا باسم الله تعالى ولله ، وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا امراة ، ولا تغلوا وضموا غنائمكم ، واصلحوا واحسنوا ، ان الله يحب المحسنين » .

فى هذه الوصية قوله عليه السلام : « سيروا باسم الله تعالى وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (أى لا تخونوا) ولا تغدورا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الذرية » .

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد :

« لا تقتل ذرية ولا عسيفا (أى أجيرا) » .

وتلك وصية لأبى بكر الصديق رواها الامام أحمد فى مسنده ، وهذا نص ما جاء فى المسند :

« عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث الجيوش الى الشام ، وبعث يزيد بن ابى سفيان أميرا ، وهو يمشى ويزيد راكب ، فقال يزيد : اما أن تركب ، واما أن أنزل .

فقال الصديق : ما انا براكب ، وما أنت بنازل ، انى أحتسب خطاى فى سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا انفسهم فى الصوامع فدعهم وما زعموا ، وستجد قوما قد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر ، وتركوا منها أمثال العصائب فاضربوا مافحصوا بالسيف ، وانى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا

كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا نخلا ، ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ، ولا بقرة ، الا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تغلل » .

ان خليفة يقول لقائده هذا مضمون له النصر العزيز ، لأنه يملى عليه أجمل وأكمل عظة فى العدل والاحسان .

وفى القرآن الكريم آيات صريحة تدل على أن الاسلام يقر حرية العقيدة وأنه لا يكره الناس على الدخول فيه بوسيلة من وسائل الاكراه . يقول القرآن المجيد :

« لا اكراه فى الدين » .

ويقرر هذه الحقيقة مؤرخ مسيحى فى كتابه عن « قصة العرب فى اسبانيا » فيقول (١) :

« ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم افادوا من تغير الحكم ، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وأصبح سكان المدن لا يكلفون الا الجزية — والخراج ان كانت لهم أرض تزرع — بعد أن كانوا فى عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التى تنفق على الدولة وقصرت الجزية على المخالفين فى الدين . أما ضريبة الأرض فانها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعا . ولم يدع التسامح الدينى للأسبانيين سببا للشكوى فقد تركهم العرب يعبدون ما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود . وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الافرنج أو القوط » .

---

(١) قصة العرب فى اسبانيا تأليف ستانلى لين بول وترجمة على الجارم .

كان للقرآن الكريم تأثير عميق فى حياة العـرب ، فقد بعث فى قلوبهم حب العمل والتفانى والاخلاص فى خدمة الدين .. وفتح لهم آفاق العلم والمعرفة .. وفى القرآن آيات تدعو الى ايقاظ العقـل واعمال الفكر والنعى على الآخذين بالظنون والأوهام .

قال الله تعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض (١) » .

« افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القـلوب التى فى الصدور (٢) » .

ولا شك أن هذا النمط من الآيات الجامعات والأقوال البينات ، فيه ما يرشد الناس الى التفكير فى الكون وخبايا الأرض وأسرار **الحياة وقوانينها والتطلع الى خفايا الوجود . وبهذا ينطلق العقل** البشرى باحثا منقبامتطاعا مما يؤدى الىالوصول الى دقائق الحقائق فى الوقوف على نظـام هذا الكون وموجوداته على تعددها وتباينها وتعقدها (٣) .

يرى بعض المفكرين أن الدين الذى يقـول للناس : **« ويخلق ما لا تعلمون (٤) »** . قد فتح أمامهم « باحة اللانهاية فلا يدع أنفسهم فى حاجة الى السؤال عن الحدود والغايات » . وأباح العقول أن تجول فى كل مجال وأن تجوس خلال كل مجهول .

وفى رأى الباحثين أن هذه الآيات وأمثالها من التى وردت فى القـرآن الكريم كانت من عوامل اندفاع المسلمين بعـد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة ، فرأوا فى

---

(١) سورة يونس : ١٠١

(٢) سورة الحج : ٤٦

(٣) قدرى حافظ طوقان : مقام العقل عند العرب ص ٢٦ .

(٤) سورة النحل : ٨

العلم الحياة ، وان الحياة لا تكون عزيزة ولا معنى لها اذا ابتعدت عن العلم وشطت عن قواعده وأصوله (١) .

قال ول ديورانت يصف عالم الفكر العربى فى ذلك العصر(٢) :

« كان التعليم عاما وبالمجان أو بنفقات بسيطة جدا يقدر على تحملها جميع الناس ، وكان المعلم يتقاضى أجرا زهيدا للغاية من كل تلميذ ، أما بقية مصروفاته فكان يحصل عليها من محبى الخير ، وانحصر منهاج الدراسة فى تعليم الغلام ، الفروض الضرورية فى العبادة الاسلامية وما يكفى من مبادىء القراءة للاطلاع على القرآن وذلك بالاضافة الى شىء من علوم الدين والتاريخ والأخلاق والقانون. وكان الفرض من التعليم الابتدائى ينحصر فى تكوين شخصية الفرد أما التعليم الثانوى فمن أجل الحصول على المعرفة . كان المعلم يجلس فى الجامع ومن حوله تلاميذه ، يلقى عليهم الدروس فى تفسير القرآن والحديث وعلوم الدين والقانون .

ولسنا نعرف بالضبط التاريخ الذى وضعت فيه هذه المدارس تحت اشراف الحكومة وعلى نفقتها .

وأضيف الى منهاج الدراسة الأساسى وهو علوم الدين ، علوم الصرف والنحو وفقه اللغة والخطابة والمنطق والرياضيات والفلك .

وعنى عناية فائقة بالنحو ، باعتبار أن اللغة العربية هى أكمل اللغات تقريبا ، وكان استعمالها صحيحة ، دليل على السيادة والنضوج . وكان التعليم فى هذه المعاهد أيضا بالمجان ، وتشترك الحكومة بعض الأحيان مع محبى الخير فى دفع نفقات الأساتذة والطلبة على السواء .

(١) المصدر السابق : ص ٢٨ .

(٢) قصة الحضارة ، جـ ٤ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ .

وكان طالب العلم يسافر من احد اطراف الدولة الاسلامية الى الطرف الآخر ليتلقى الدرس على معلم شهير ، حتى لقد انبغى على كل طالب يريد الحصول على منزلة رفيعة ، أن يتلقى العلم على أيدى أساتذة مكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، واستطاعت هذه العالمية فى الآداب ان تجد السبيل ميسرا ، ذلك بأنه عن طريق الاسلام ــ بفض النظر عن اختلاف الشعوب ــ كانت لفة التعليم والأدب هى اللغة العربية .

ولا ريبة فى ان أى اجنبى اذا ما دخل أية مدينة اسلامية كان فى مستطاعه أن يستمع فى أية ساعة من ساعات النهار الى محاضرة تعليمية فى المسجد الرئيسى ، أما طالب العلم المتجول ، فكان فى أحيان كثيرة لا يحصل على التعليم بالمجان فحسب ، وانما يحصل كذلك على الطعام والمسكن ، ولم تكن تعطى شهادات علمية ، ولكن يحصل الطالب على اجازة من أستاذه . أما منهاج التعليم النهائى ، فتعريف الطالب بالآداب العامة من حيث حسن المعاملة والذوق السليم ، والفطنة والكياسة ، وعموما ما يجب أن يتصف به السيد المهذب من مكارم الأخلاق .

وعرف العرب صناعة الورق عندما اختلطوا بالصينيين بعد فتح سمرقند ، وتأسست أول صناعة للورق فى بغداد سنة ٧٩٤م على يد الفضل فى عصر هرون الرشيد ، ثم ادخل العرب هذه الصناعة فيما بعد الى أسبانيا وصقلية ومن ثمة انتقلت الى ايطاليا وفرنسا ، وكان ادخال هذا الاختراع سببا فى انتشار الكتب فى كل مكان ، ويدلنا اليعقوبى على أنه كان فى زمانه (٨٩١ م) اكثر من مائة بائع للكتب (وراق) فى بغداد ، وأن محلاتهم كانت مركزا للنسخ وللخطاطين وللمنتديات الأدبية ، وكان كثير من طلاب العلم يكسبون عيشهم عن طريق نسخ المخطوطات وبيعها لتجار الكتب (الوراقين) .

وفى القرن العاشر سمعنا عن جامعى الامضاءات ، وعن جامعى الكتب الذين يدفعون مبالغ طائلة فى سبيل الحصول على مخطوط نادر ، وكان المؤلفون لا يربحون ربحا ماديا من مؤلفاتهم ، فكانوا اما أن يعيشوا عيش الكفاف أو على هبات الأمراء والأغنياء .

وقد الحق بأغلب الجوامع مكتبات عامة ، وكان يوجد فى بعض المدن مكتبات تضم كتبا قيمة ، يباح الاطلاع عليها للجميع ، وحوالى سنة ٩٥٠ م أسس بعض محبى الخير مكتبة فى الموصل ، كان الطلبة يتزودون فيها بالورق والكتب ، وكانت الكتب التى تحتوى عليها مكتبة الرى العمومية مسجلة فى عشرة أجزاء من الفهارس .

أما مكتبة البصرة فكانت تمنح معاشات شهرية للعلماء المشتغلين فيها ، وقضى ياقوت الجغرافى ثلاث سنوات فى مكتبة مرو وخوارزم يجمع معلومات لقاموسه الجغرافى ، ولما قوض المغول بغداد ، كان بها ست وثلاثون مكتبة عامة ، أما المكتبات الخاصة فكانت لا تحصى ، ولقد رفض أحد الأطباء دعوة سلطان بخارى للاقامة فى بلاطه ، لأنه يحتاج الى أربعمائة بعير لنقل مكتبته .

ولما مات الواقدى ، ترك ستمائة صندوق من الكتب يحتاج كل منها الى رجلين لحمله ، وربما ملك الصاحب بن عباد من الكتب فى القرن العاشر ما يقدر حينئذ بما كان فى مكتبات أوربا مجتمعة ، وبلغ الاسلام فى ذلك الوقت أوج حياته الثقافية ، وكنت تجد فى الف مسجد منتشرة من قرطبة الى سمرقند ، علماء لا يحصيهم العد ، كانت تدوى أركانها بفصاحتهم .

وكانت جميع مسالك العالم الاسلامى تعج برجال الدين والجغرافيين والمؤرخين الذين لا يحصيهم العد ، انتشروا فى الأرض بحثا وراء المعرفة والحكمة ، وكانت قصور مائة أمير تتجاوب بالشعر والمناقشات الفلسفية ، ولم يكن هناك من رجل يجرؤ على

أن يكون مليونيرا من غير أن يعاضد الادب أو الفن ، ولقد استطاع العرب أن يستوعبوا ما كان عند الأمم المغزوة من ثقافات بما اتصفوا به من سرعة الخاطر وقوة البديهة ، حتى لقد اظهر الغزاة كثيرا من التسمح تلقاء الشعراء والعلماء والفلاسفة الذين جعلوا حينئذ من اللغة العربية أوسع اللغات علما وأدبا فى العالم بحيث ظهر العرب الأصلاء وكأنهم قلة بالنسبة الى مجموعهم .

ولقد قوى علماء الاسلام فى هذا العصر من أسس الأدب الرفيع بما بذلوا من مجهود فى قواعد النحو ، التى زودت العربية بمسحة من المنطق والمعايير السامية ، وفى قوامسهم التى جمعت تلك الثروة الواسعة من مفردات اللغة على صورة فريدة من الضبط والدقة والأحكام ، وبما جمعوا من دواوين الشعر والحكمة والموسوعات التى حفظت كثيرا مما كان من الممكن أن يفقد لولاها ، وبما وجهوا من عناية النقد نحو المتون والادب والتاريخ ، واننا اذ نغفل أسماءهم ، لا يسعنا الا أن نعبر عن امتناننا بأن نحيى ثمرة جهودهم .

ان المبادىء النبيلة التى قامت عليها أسس الدولة العربية وأدت الى هذه الوحدة الكبرى . وهذا النشاط الفكرى الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسان ، كانت تستهدف حماية جميع رعاياها بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو أجناسهم أو الوانهم فلا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، قد جعلت منهم جميعا وحدة تهدف الى خدمة الانسانية وتعمل بكل طاقاتها ، وامكانياتها على الرقى بها ، والنهوض بعلومها وصناعاتها ، مما أدى بدوره الى هذه الحضارة العربية السامقة التى أخذت تهز الانسان هزا شديدا فى شرق الأرض ومغربها عدة قرون ، ليفلت من جهالاته ويفيق من خدر القرون السود ليستقبل عصر العلم والنور .

سار العرب بالانسانية فى موكب التقدم والرقى ، فقد توفرت فيهم الصفات التى تؤهلهم للقيام بدور حضارى ، وأداء رسالة انسانية سامية فى الحياة .

أولا : انهم أصحـــاب كتاب منزل وشريعة الهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند انفسهم ، ولا يخبطون فى سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به فى الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس .

ثانيا : انهم تولوا الحكم والقيادة بعد تربية خلقية وتزكية نفس ، فقد مكثوا طويلا تحت تربية محمد صلى الله عليه وسلم واشرافه الدقيق ، يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهــد والأمانة والايثار على النفس وخشـــية الله العلى القـــدير وعدم الاستشراف للامارة والحرص عليها ، ولا يزال يقرع سمعهم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

واذا تولوا شـــيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو ثمنا لما انفقوا من مال أو جهد ، بل عدوه أمانة فى عنقهم وامتحانا من الله تعالى ، ويعلمون أنهم موقوفون عنــد ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائما قول الله عز وجل :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » .

ثالثا : انهم كانوا أصحاب رسالة انسانية ، تستهدف تحرير الانسان من كل ما يعوق تقدمه ، وليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا الى عبادة الله وحده ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العبــاد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام (١) » .

(١) القصة بتمامها فى البداية والنهاية لابن كثير .

فالأمم عندهم سواء ، والناس عندهم سواسية ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » .

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر — وقد ضرب ابنه مصريا — وافتخر بآبائه قائلا خذها من ابن الأكرمين ، فاقتص منه عمر وقال : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا (١) » . فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم على أحد ، ولم يراعوا فى الحكم والامارة والفضل نسبا ولونا ووطنا ، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها .

رابعا : ان الانسان جسد وروح ، وهو ذو قلب وعقل ، لا يسعد ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسقا لائقا بها ، ويتغذى غذاء صالحا ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة الا اذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للانسان بسهولة أن يبلغ كماله الانسانى ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك الا اذا كانت قيادة الحياة وادارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة وعلوم نافعة .

وقد وصف عالم نمساوى مسلم ميزة الاسلام وصفا دقيقا ، فقال (٢) .

---

(١) راجع تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

(٢) محمد أسعد : الاسلام فى مفترق الطرق ص ٣٩ .

« ان الاسلام لا ينظر الى العالم بمنظار اسود ، بل هو يعلمنا ان لا نسرف فى تقدير الحياة الأرضية ، وان لا نغالى فى قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة .

ان المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر ــ خلاف الروح النصرانى ــ يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبتلعه ولكن ليس عنده كرامة له ، والاسلام بالعكس ينظر الى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها فى طريقنا الى حياة عليا ، وبما انها مرحلة ومرحلة لابد منها ليس للانسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية ، ان مرورنا بهذا العالم فى سفر الحياة لابد منه ، وقد سبق به تقدير الله .

فالحياة الانسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغى لنا أن ننسى انها ليست الا واسطة وآلة وليست قيمتها الا قيمة الوسائط والآلات ، الاسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة : « ان مملكتى ليست الا هذا العالم » ولا بالنظرية المسيحية التى تزدرى الحياة وتقول : « ليس هذا العالم مملكتى » . وطريق الاسلام طريق وسط بينهما ، القرآن يرشدنا أن ندعو :

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » .

فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية الخصبة ، والرقى المادى مرغوب فيه مع انه ليس غاية فى نفسه ، ان غاية جهودنا ينبغى أن تكون ايجاد احوال وظروف شخصية واجتماعية ، والمحافظة عليها ان وجدت تساعد فى ارتقاء القوة الخلقية فى الانسان مطابقة لهذا المبدأ .

الاسلام يهدى الانسان الى الشعور بالمسئولية الخلقية فى كل عمل يعمله كبيرا كان أو صغيرا .

ان الاسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا الى خلقية وعملية ليس هنالك الا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس هناك شيء وسط بينهما ، لذلك هو يلح على العمل لانه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغى لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولا شخصيا عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله مأمورا بالجهاد لاقامة الحق ومحق الباطل فى كل وقت وفى كل جهة . يقول الله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هذا هو المبرر الخلقى للحركة الاسلامية الجهادية والفتوح الاسلامية الأولى . ان هذه الفتوح الاسلامية ليست مدفوعة بحب السيطرة والاستيلاء ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين الى الجهاد طمع فى خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه الا بناء اطار عالمى لأحسن ما يمكن للانسان من ارتقاء روحى ، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعاليم الأنسان يفرض على الانسان تبعة العمل بالفضائل ، الاسلام لا يوافق أبدا على الفصل الأفلاطونى والتفريق النظرى البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الرذيلة أن يميز الانسان نظريا بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وازهاق الباطل ، فان الفضيلة كما يرى الاسلام تحيا اذا جاهد الانسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت اذا خذلها وتقاعس عن نصرتها .

لقد حقق المسلمون انجازات رائعة فى مختلف مجالات الرقى الانسانى وأقاموا حضارة وارفة الظلال ، بيد أنهم ما لبثوا أن تفرقوا شيعا وأحزابا ، وتركوا المبادىء السامية التى جاء بها دينهم الحق فوقعوا فى براثن الاستعمار .

يقول الكاتب الأمريكى : « لوثروب ستودارد » فى كتابه : « حاضر العالم الاسلامى » (١) :

« ان مبادىء الحرية التى سادت فى العرب ونودى بها غالب القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شر ممزق ، وبددت صورها كل مبدد ، اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى ، واشتد نهم أوروبا وجشعها للتوسع فى الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثيل » . وتمزق العالم الاسلامى ، وراحت الشعوب تكافح من أجل الاستقلال والوحدة ..

وقد بهرت الحضارة الغربية بعض الناس ، ولكن هذا البريق لا يجوز أن يعشى أبصارنا عن حقيقة الشقاء الذى باتت تعانيه البشرية فى ظل هذه الحضارة المادية .

يقول الدكتور « الكسيس كاريل » فى كتابه : « الانسان .. ذلك المجهول » (٢) :

« ان الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ أنها تولدت فى حالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ، وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، على الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، الا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا .

« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال ، اهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية ، اذ أن الصناعة

---

(١) عربه عجاج نويهض ، وعلق عليه الامير شكيب أرسلان .

(٢) ترجمة شفيق أسعد فريد ، نشر مكتبة المعارف فى بيروت ص ١١ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٤٠ .

العصرية تنهض على مبدأ « الحد الأقصى من الانتاج بأقل التكاليف » حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على اكبر مبلغ مستطاع من المال .

وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحـدثها طريقة الحيـاة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد ، واحفادهم .

« يجب أن يكون الانسان مقياسا لكل شىء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه ، انه لم يستطع ان ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .

ومن ثم فان التقدم الهائل الذى احرزته علوم الجماد على علوم الحيـاة هو احدى الكوارث التى عانت منها الانسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقـوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا ، اننا قوم تعساء ، نتخبط اخلاقيا وعقليا .. ان الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة ، الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها . ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها ..

وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التى سبقتها ، اوجدت احوالا معينة للحياة من شأنها ان تجعل الحياة نفسـها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة .. ان القلق والهموم ، التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

لقد أصبح الفرد ضيقا ، متخصصا ، فاجرا ، غبيا ، غير قادر على التحكم فى نفسه ومؤسساته .

ولسوف يكون من الصعب أن نتخلص من مذهب يسيطر خلال اكثر من ثلاثمائة عام على عقول القوم المتحضرين .

فاذا كان على الحضارة العلمية ان تتخلى عن الطـريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود الى ملاحظة المـادة الجامدة ببساطة ، فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور .

ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقـلى كالنشاط الفسيولوجى .. وسيبدو ان لا مفر من دراسة الوظائف الأدبيـة والجمالية والدينية ، كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء .

ولما كان من الواضح أن تحرير الانسان من مذهب « المادية » سوف يقلب أغلب جوانب حياتنـا ، فان المجتمع العصرى سـوف يعارض بكل قوته هذا التقدم فى آرائنا .

مهما يكن ، يجب أن نتخذ دواعى الحيطة حتى لا يحدث فشل المادة رد فعل روحيا ، اذ لما كانت « التكنولوجيا » وعبادة المـادة لم يصيبا نجاحا ، فقد يستشعر الناس اغراء عظيما لاختيار الطقوس المضـادة . طقوس العقل .. ولن تكون رئاسـة السيكولوجيا أقل خطرا من رئاسـة الفسيولوجيا والطبيعة والكيمياء !! فقد أحدث « فرويد » أضرارا أكثر من التى أحدثها أكثر علماء الميكانيكا تطرفا!! فان من الكوارث أن تختزل الانسان الى جانبه العقلى ، مثل اختزاله الى آلياته الطبيعية ـ الكيماوية : ولا مفر من دراسة الصـفات الطبيعية لمصل الدم وتوازنه الأيونى ، وقابليته احتراق البروتوبلازم .. الخ .. كما ندرس الأحلام والشهوات والتاثيرات السيكولوجية للصلاة وذاكرة الكلمات .. الخ .

بيد أن استبدال الروحى بالمـادى لن يصـحح الخطأ الذى ارتكبته النهضة ..

فاستبعاد المادة سوف يكون أكثر اضرارا بالانسان من استبعاد العقل .

وانما سيوجد الخلاص فقط فى التنحى عن جميع المذاهب .

ان من المحتم علينا ان نفكر بكل فكرنا الواعى ، وبكل اعماقنا فى التجارب والنذر ..

ان الاسلام ــ هو وحده ــ القادر على انقاذ الانسانية مما يحدق بها من أخطار هائلة ، وهو وحــده القــادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها ولاحتياجاتها الحقيقية .. وهو وحــده الذى ينســق بين خطاها فى الإبداع المادى وخطاها فى الاستشراف الروحى ، فتعيش حياتها آمنة على يومها ، مطمئنة على غدها فى ظل الحرية والمساواة والاخاء والعدل الاجتماعى وكل ما يكفل للانسان التقدم والرقى .

التجـــديد الإســـلامي

فى القرن الثامن (١) عشر كان العـــالم الاسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركه ، فاربد جوه وطبقت الظلمة على كل صقع من أصـــقاعه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيـــا من آثار التهذيب العربى ، واستفرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الأهواء ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا ، وأهملت الزراعة .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحـــدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات ، وغابت عن الناس فضائل القرآن .

وكان « من أكبر عوامل انحطـــاط المسلمين الجمـــود على القديم » (٢) فكما أن آفة الاسلام هى الفئة التى تريد أن تلغى كل شىء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافـــع ، كذلك آفة الاســـلام هى الفئة الجامدة التى لا تريد أن تغير شيئا ، ولا ترضى بادخال أقل تعـــديل على أصول التعليم الاسلامى ظنـــا منهم بأن

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ، تأليف لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض جـ ١ ، ص ٣٣ .

(٢) شكيب ارسلان : لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقـدم غيرهم ؟ ص ٧٧ ، ٩٦ ، ٩٧ .

الاقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار ، فقد أضاع الاسلام جاحد وجامد .

أما الجاحد فهو الذى يأبى الا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم وشخصياتهم ، ويحملهم على انكار ماضيهم ، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوى الذى يدخل فى تركيب جسم آخر كان بعيدا فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل فى النفس الى انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين ، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم لا يصدر الا عن الفسل الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذى يشعر أنه فى وسط قومه دنىء الأصل فيسعى هو فى انكار أصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوماتها وشخصياتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك الا ما ثبت ضرره .

والجامد هو الذى مهد لأعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الاسلامى انما هو ثمرة تعاليمه . والجامد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال أن الاسلام هو دين دنيا وآخرة ، وأن هذه مزية له على سائر الأديان ، فلا حصر كسب الانسان فيما يعود للحياة التى وراء هذه كما هى ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهده فى مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الانجيل ، ولا حصر سعيه فى أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هى مدنية أوروبا الحاضرة .

والجامد هو الذى شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها من علوم الكفار ، فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذى هم فيه وقص أجنحتهم ، فان العلوم الطبيعية هى العلوم الباحثة فى الأرض ،

والأرض لا تخرج أفلاذها الا لمن يبحث فيها . فان كنا طول العمــر لا نتكلم الا فيما هو عائد للآخرة ، قالت لنا الأرض : اذهبوا توا إلى الآخرة فليس لكم نصيب منى . ثم أننا بحصر كل مجهوداتنا فى هذه العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بازاء سائر الأمم التى توجهت الى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون فى الأرض ونحن ننحط فى الأرض ، الى أن صار الأمر كله فى يدهم ، وصاروا يقدرون أن يأفكونا عن نفس ديننا فضلا عن أن يملكوا علينا دنيــانا ومن ليست له دنيــا فليس له دين هذا هو الذى يريده الله بنا وهو الذى قال :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » .

وقال :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

وقال :

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

وقال فيما حكاه واقره :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وعلمنا أن ندعوه بقوله :

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » .

والمسلم الجامد لا يدرى انه بهذا المشرب يسعى فى بوار ملتــه وحطها عن درجة الأمم الأخرى ، ولا يتنبه لشىء من المصائب التى جرها على قومه اهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذى هم فيه ، وصــاروا عيــالا على أعــدائهم الذين لا يرقبــون

الا ولا ذمة ، فهو اذا نظر الى هذه الحالة عللها بالقضاءوالقــدر بادىء الرأى ، وهذا شــأن جميــع الكسالى فى الدنيا يميلون على الأقدار .

والمسلم الجامد هو الذى طرق لأعداء الاسلام على الاســلام وأوجد لهم السبيل الى القالة بحقه ، حتى قالوا : انه دين لا يأتلف مع الرقى العصرى ، وانه دين حائل دون المدنيــة ، والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحولون دون الرقى العصرى والاسلام براء من جماداتهم هذه .

ان الاسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاســد ، وجب للماضى القبيح ، وقطع كل العــلائق مع غير الحقائق ، فكيف يكون الاسلام ملة الجمود ؟ . . والقرآن هو الذى جاء فيه قصة ابراهيم عليه السلام :

((اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفــون . قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقــد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين)) .

وجاء فيه ((انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون))
وغير ذلك من الآيات الداعية الى الثورة على القديم اذا لم يكن صحيحا ولم يكن صالحا .

الاسلام(١) لم يقف يوما ما سدا فى وجه التقدم والعلم ، انه يقدر الجهود الفكرية فى الانسان الى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة وما من دين ذهب أبعد من الاسلام فى تأكيد غلبة العقل ، وبالتالى غلبة العــلم على جميع مظاهر الحياة ، واذا نحن عملنا بأركان هذا

---

(١) محمد أسعد : الاسلام على مفترق الطرق ، ترجمــة الدكتور عمر فروخ ص ٦٩ ، ٨٢ ، ٨٣ .

الدين فاننا لا نستطيع أن نهجر التعليم الحديث فى حياتنا ، اننا نرغب فى ان نتعلم وأن نتقدم وأن نصبح من الناحية العلمية والاقتصادية اكفاء كالشعوب الغربية . ولكن الشىء الوحيد الذى لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية ويروا الآراء الغربية ، انهم لا يستطيعون أن يتمنوا ــ اذا أرادوا أن يظلوا مسلمين ــ أن يتبدلوا بحضارة الاسلام الروحية تجارب مادية من أوربا .

فالمدنية الغربية لا يمكن أن تكون الوسيلة الصحيحة لايقاظ العالم الاسلامى من سباته العقلى والاجتماعى ، ذلك السبات الذى أدى الى انحلال مظاهر الدين حتى أصبحت عادة مجردة لا حياة لها ولا باعث اخلاقيا فيها ، فأين يجب على المسلمين اذن أن يبحثوا عن الباعث الروحى والعقلى الذى هم اليوم فى أشد الحاجة اليه .

ان الجواب على ذلك سهل سهولة السؤال عنه ، بل انه متضمن فى السؤال نفسه .

ان الاسلام ليس « اعتقادا » بالجنان فقط ولكنه فوق ذلك منهاج ظاهر الحدود تمام الظهور للحياة الفردية والاجتماعية .. ويمكن أن يهدم الاسلام باتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافا جوهريا فى أسسها الأخلاقية ، وكذلك يمكن أن ينتعش حالما يرجع الى حقيقته الخاصة به ، وتنسب اليه قيمة هى العنصر الذى يقرر ثم يؤلف كياننا الفردى والاجتماعى فى جميع نواحيه .

وفى هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الاسلام أن يظل شكلا أجوف ، لقد انقضى نومه السحرى الذى دام أجيالا فيجب أن ينهض أو أن يموت .

ان المشكلة التى تواجه المسلمين اليوم هى مشكلة مسافر وصل الى مفترق طرق :

انه يستطيع أن يظل واقفا مكانه ، ولكن هذا يعنى أنه سيموت جوعا ، وهو يستطيع أن يختـــار الطريق التى تحمـــل فوقها هذا العنوان « نحو المدنية الغربية » ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه الى الأبد ، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التى كتب عليها « الى حقيقة الاسلام » . ان هذه الطريق وحـــدها التى تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم ، وباستطاعتهم التطور نحو مســـتقبل حى .

لقد اختار المسلمون الطريق التى كتب عليها « الى حقيقـــة الاسلام » . وظهر فى العالم الاسلامى خلال تاريخه الممتد عدد كبير من المجددين الذين جددوا معالم الدين ، ومن الاعلام البارزة فى هذا الميدان الغزالى وابن تيمية وابن القيم الجوزيه وغيرهم من عباقرة الاسلام ، ونحن لن ندرس هنا تاريخ التجديد الاسلامى فليس هذا هدفنا ، ولكننا سندرس التجديد من حيث هو اتجاه فكرى خاص ظهر فى العالم الاسلامى حينما جاءت المدنية الغربية واضطرته الى الفصل فى الصراع الذى نشأ اذ ذاك بين الثقافة الغربية والتراث الاسلامى .

عرف دعاة التجديد العالم الاســـلامى أن الذى أفســـد نظـــرة المسلم الجامد والجاحد هو التقليد ، تقليد الآباء والأجداد أو تقليد الأمم الغربية . فصمموا على محاربة التقليد ، ونادوا بالاجتهاد ، ليكون أساس بناء مذهبهم الجديد .

وقد انبرى دعاة التجديد لفكرة التقليد ، واظهروا للناس أن التقليد مخالف لروح الدين ، وأن الدين ينكر التقليد ، ويدعـــو للاجتهاد .

وقد كثرت آيات القرآن الواردة فى ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف ، دون نظر واستدلال ، هؤلاء الذين ورثوا عقـــائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم لا لشىء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم

وكأنهم يرون أن السبق الزمنى ، يخلع على خطة السابقين وآرائهم فى المعتقدات ، وأفهامهم فى النصوص ، قداسة الحق وسـلطان البرهان ، فالتزموها وتقيدوا بها ، وسلبوا أنفسهم خاصة الانسان، خاصة البحث والنظر . وفى هذا الشأن يقول الله تعالى :

((واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)) (١) .

((واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسـول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)) (٢) .

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم ، فهم يرثون أفكارهم وآراءهم ، كما يرثون عقارهم وأرضهم ، وحكى عنهم اكتفـاءهم بمعتقداتهم الموروثة ، ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهـوا الى الترقى والتدرج فى العلم ، ولا شك أن كلا الموقفين : الجمود عند المورث والاكتفاء به مصادم لما تقضى به طبيعة الكون وطبيعة كل حى ، من النمو والتوليد . والتناسل الفكرى ، كالتناسـل النباتى والحيوانى والانسانى ، كلاهما شأن لابد منه فى الحياة . ولو وقف التناسل الفكرى لارتطم الانسان فى حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التى هو منها . وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية التى لم يقدر لها النماء الا خدمة له ، وسبيلا لخـيره ونفعه ، فيتحقق فشله فى القيـام بمهمة الخلافة فى الأرض التى اختير لها ووكلت اليه منذ القدم .

واذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهـم متقدمون مصادما لقانون النمو والتناسل الطبيعى ، فهو فى الوقت نفسه ، سلب لمزية الانسان فى التمييز بين الحق والباطل ، والملائم وغـير

---

(١) سورة البقرة : ١٧٠ .

(٢) سورة المائدة : ١٠٤ .

الملائم ، فيفعل ما يفعل دون عقيدة ، ويترك ما يترك دون عقيدة ، ومثل هذا لا يجد لنفسه خطا فى أن يفعل أو فى ان يترك وانما يقاد بالزمام . وزمامه صور الآباء والأجداد ، فهو دائما تجذبه القهقرى ولا يجد فى نفسه عونا على التقدم ، فيقع فى ضيق الحياة المتجددة حوله (١) .

* * *

ونعرض هنا فى شىء من الايجاز لأفكار المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى ولامام المجددين الحديثين الأستاذ الشيخ محمد عبده .

ان منهج جمال الدين الأفغانى الذى اقترحه ليجعل من المسلمين قوة متماسكة سائرة فى الحياة ، حريصة على ان تكون سيدة نفسها ، يتلخص فى هذه الجملة :

« أرجو أن يكون سلطان جميعهم — جميع المسلمين — القرآن ووجهة وحدتهم الدين » .

ويقول شارحا ذلك (٢) : « أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم :

(أ) أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت قواعد الجبر وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال .

(ب) هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرنين الثالث والرابع .

(جـ) وما أحدثه السوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود ، وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق .

(١) الأستاذ محمود شلتوت : توجيهات الاسلام ص ١٣٤ .

(٢) مجموعة العروة الوثقى ص ٧٠ — ٧١ .

(د) وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ، ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ، ويثبتونها فى الكتب ، وفيهـــا السم القاتل لروح الغيرة وان ما الصق منها بالعقـــول يوجب ضعفا فى الهمم ، وفتورا فى العزائم .

وتحقيق أهل الحق ، وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم ، والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقـــة ، ومبادئه الثابتة التى دعا اليها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم تكن دراســـة الدين على طريقهـــا القـــويم الا منحصرة فى دائرة مخصوصة وبين فئة ضعيفة .

لعل هذا — يقول الأفغانى — هو العلة فى وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم نســـأل الله الســـلامة منه .. وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهـــو كتابهم المنزل ، وامامهم الحق ، وهو القائم عليهم ، يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنفعة من كل سبيل ، لا يقنن لها وجها ولا يخصص لها طريقا — فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة ، حفظا لحقوقهم ، وضنا بأنفسهم من الذل ، وملتهم من الضياع ، والى الله تصـــير الأمور .

ويقول (١) :

هل تعجب أيها القارىء من قولى : ان الأصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشىء للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحيـــاة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع المعارف ، وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية .

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٨ .

أن القــرآن حى لا يموت ، ومن اصـــابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ ، فارجعوا اليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم ، وما الله بغافل عما تعملون .

وفى الظن أن العلمـــاء لو قاموا بهذه الفريضة ــ فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ زمنا قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى نفوس المؤمنين ، رأينـــا لذلك أثرا فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشـــهدنا لها يوما يسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا ، وهو مجد الله الأكبر (١) .

ان حركتنا الدينية « بالدعوة الى القرآن الكريم » كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها مثـــل : حملهم نصوص « القضاء » و « القـــدر » على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا الى طلب مجد أو تخلص من ذل .

ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه ، فهما يثبط هممهم عن السعى وراء الاصلاح والنجاح ، مما لا عهد للسلف الصالح به .

فلابد اذن من بعث القـــرآن ، وبعث تعـــاليمه الصحيحة بين الجمهور ، وشرحها على وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم الى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .

ولابد من تهذيب علومنا ، وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قريبة سهلة الفهم ، فنستعين بتلك الكتب والعلوم التى تضمنها على الوصول الى الرقى والنجاح (٢) .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٤٤ .

(٢) عبد القادر المغربى : جمال الدين الافغانى ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

بهذا شرح جمال الدين الأفغاني رأيه في الرجوع الى القرآن المجيد والى تعاليمه الصافية ، بعد أن آلت شروحه السابقة ، وتخريجه المتنوع الى مذاهب ، وآل أمر هذه المذاهب الى تفريق الأمة الى طوائف ، وآل أمر الطوائف الى العصبية والتنابذ في الخصومة ، وصار ذلك كله الى الضعف والوهن ، ثم الى الانهيار .

***

وقام محمد عبده بحركة اصلاحية في تعديل المفاهيم الاسلامية قصد منها بيان القيمة الايجابية في توجيه الاسلام .

ويصور محمد عبده أهداف تفكيره ، بقلمه الخاص ، فيما يلى :

« .. وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفها الى ينابيعها الأولى ، واعتباره — الدين — من ضمن موازين العقل البشرى التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه .

وقد خالفت في الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين ، اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم . وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الثانى : فهو اصلاح اللغة العربية .

وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعا في عمى عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها .. دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم

وان وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطئـه ، ولا يوقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد .

نعم .. اننى فى كل ذلك لم أكن الامام المتبع ، ولا الرئيس المطاع غير انى كنت روح الدعوة (١) .

بدأ محمد عبده فحمل حملة شـديدة على التقليـد ودعاته ، واوضح للناس أن الله تعالى قد نعى التقليد على الكفـار والمشركين ولم يرتضه لعباده المؤمنين .

يقول فى تصوير عقلية المقلد ومنطقه الفاسد :

« ان قلوب الجماهير من الخاصة قد التاثت بمرض التقليـد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوه نبذوه والجوا فى مقاومته ، وان أدى ذلك الى جحد العقـل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما نجد من يستدل فيعتقد (٢) » .

وفى تفسير الآية ١٧١ من سورة البقرة وهى :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » .

يقول :

« ان الآية صريحة فى ان التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه

---

(١) تاريخ الامام محمد عبده : ج ١ ، ص ١١ — ١٢ .

(٢) رسالة التوحيد : ص ٧٢ .

حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . لأنه ليس القصد من الايمان أن يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله ونفسه بالعلم والعرفان فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته ، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده . فلا يأخذ بالتسليم لاجل آبائه وأجداده (١) » .

ويقول للذين يبررون التقليد بما يتضمنه من احترام الآباء والأجداد :

« ان الاسلام صرف القلوب عن التعلق بما عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين . ونبه على أن السبق فى الزمان ليس من آيات العرفان ، ولا سيما لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه (٢) » .

كان من الطبيعى وقد رفض الامام محمد عبده التقليد ، أن تقترن هذه الحركة بالدعوة الى استعمال العقل فى الاستدلال على العقائد الدينية واستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والقياس والاجماع ، بيد أن هذه الدعوة لن يكتب لها النجاح الا اذا قام الدليل القاطع على أن الاسلام قد اعترف بالعقل كوسيلة للمعرفة وأداة للوصول الى الحقيقة ، ومن ثم اتجه الامام محمد عبده الى اثبات هذه الحقيقة .

يقول فى رسالة التوحيد (٣) :

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص ٦٢ — ٩٤ .

(٢) رسالة التوحيد ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٣) ص ١٤٢ .

« فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية » .

ويقول الأستاذ الامام قولا يؤكد دور القرآن فى عملية تحرير العقل من فكرة الخوارق والمعجزات « دخل الانسان بدين الاسلام فى سن الرشد ، فلم تعد مدهشات الخوارق هى الجاذبة له الى الايمان ، وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال فى الفكر والأخلاق والأعمال ، كما كان فى سن الطفولة — النوعية — بل أرشده الله تعالى بالوحى الأخير — القرآن ، الى استعمال عقله فى تحصيل الايمان بالله وبالوحى ..

فايماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم الى فهم البرهان ، لا ينافى كون ديننا هو دين العقل والفطرة ، وكونه حتم علينا الايمان بما يشهد له العيان ، من أن سنته فى الخلق لا تبديل لها ولا تحويل [1] » .

وصدق الله العظيم حين يقول :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »

لقد أكثر القرآن المجيد من الحديث عن العقل والتعقل ، والتفكير والتدبر ، والعلم والمعرفة ، وذلك ليكون الانسان على بصيرة من أمر نفسه ، ومن الوسائل التى يعتمد عليها فى ممارسة الحياة — وليست الا العلم بالنواميس الطبيعية والسنن الاجتماعية تلك التى نسميها بالقوانين والنظريات العلمية

---

(1) تفسير المنار ج ١ ، ص ٢١٥ .

اكد الامام محمد عبده فى صراحة : ان الاسلام لم يعتمد على الخوارق والمعجزات فى اثبات صحة العقائد الاسلامية ، ولكنه اعتمد على العقل ، على الدليل العقلى والفكر الانسانى ، وكان سبيله هو انهاض العقل البشرى « وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقب الأسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان ، وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد (١) » .

لم يتردد الامام محمد عبده فى القول بأن العقل يقدم على ظاهر الشرع عند التعارض : « اتفق أهل الملة الاسلامية — الا قليلا ممن لا ينظر اليه — على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل (٢) » .

كان الامام محمد عبده يعلم ان للعقل البشرى حدودا يجب الا يتجاوزها ، فهناك مناطق كونية لا يستطيع العقل أن يدرك كنهها ، ويصل الى أسرارها ، ومن ثم كان من المحتم أن يعترف بقصوره بالنسبة اليها ، وأن ينزل على حكم الدين فى كل ما تقصر عنه جهوده ويتجاوز طوقه فهو يرى :

أولا : ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد الهى (٣) .

---

(١) الاسلام دين العلم والمدنية — تحقيق طاهر الطناحى — ص ٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٨ .

(٣) رسالة التوحيد : ص ١٤٢ .

ثانيا : ان الدين يجب أن يعد من « موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل خلطه وخبطه »[1] .

لقد خلص الامام محمد عبده الى وضع مبدأ جوهرى من مبادىء التجديد الدينى ، وهذا المبدأ يتلخص فى نبذ التقليد ، والاعتراف بالعقل كمصدر من مصادر المعرفة فى المبادىء الدينية وغيرها ، وتقديم العقل على النقل عند التعارض ، مع التفويض فى شأن النص ، أو تأويله بما يتفق وما وصل اليه العقل من نتائج ، بيد أنه يجب أن يضم الى هذا أن الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله سبحانه وتعالى لترد من شططه وتقلل خلطه ، وثمة مبدأ آخر هو الاجتهاد ، وقد استخدمه الأقدمون فى تكوين الشريعة ، فظل ينبض بالحياة حتى ظهرت الصيحة الرجعية المنادية باغلاق باب الاجتهاد .

وقد ثار على هذه الفرية أحرار من كبار مفكرى العالم الاسلامى ، ويبقى أن تستمر هذه الثورة حتى ترتفع العصائب السوداء عن أعين العالم الاسلامى ليسير فى ضوء الحياة مجتهدا مبتكرا مشرعا كما أمره الله العلى القدير .

يقول العلامة عز الدين بن عبد السلام من علماء القرن السابع الهجرى :

« وقد اختلفوا متى انسد باب الاجتهاد ، على أقوال ما أنزل الله بها من سلطان . قيل بعد مائتين من الهجرة ، وقيل بعد الشافعى ، وقيل بعد الأوزاعى وسفيان ، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم بحجة الله ينظر فى الكتاب والسنة ويأخذ الأحكام ، وان لا يفتى أحد بما فيهما الا بعد عرضه على قول مقلده ، فان وافقه حكم وأفتى ، والا رده ، وهذه أقوال فاسدة ، فانه ان

---

(1) تفسير المنار جـ ٨ ص ٨٩٢ .

وقعت حادثة غير منصوص عليها ، أو فيها خلاف بين السلف ، فلا بد فيها من الاجتهاد من كتاب أو سنة وما يقول سوى هـذا الا صاحب هذيان » .

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الرحمن تاج :

« ان باب الاجتهـاد لم يغلق على الناس يفهمون لغة القرآن الصحيحة ، ويستطيعون أن يحـكموا على ما يجد من أمور مستحدثة فى ضروب التعامل والعلاقات الدولية ، ويجب على أولى الأمر من المسلمين وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا حكم الاسلام فيها على الأسس والأصول الاسلامية » .

نادى المجددون بفتح باب الاجتهـاد من جديد ، ولكنهم جددوا معنى الاجتهاد نفسه ليكون صالحا لأداء الخدمة الاسلامية الكبرى التى يحتاج اليها الاسلام والمسلمون فى هذا العصر ، وهو « تطور الشريعة فى الاتجاه الذى يحقق الخير والمصلحة فى الوقت الحاضر ، ويرد التهم المفرضة عن الاسلام والشريعة الاسلامية » .

اتجهت الأنظار الى المصلحة كأساس للتشريع ، يقول عز الدين ابن عبد السلام فى كتابه « قواعد الأحكام فى مصالح الأنام » :

« .. والتكاليف كلها راجعة الى مصالح العباد فى دنيـاهم وآخرتهم ، والله غنى عن عبـادة الكل ، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، وان مصالح الآخرة لا تتم الا بمصـالح الدنيا » .

ويقول ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » :

« .. فان شريعة الله مبناها فى الحكم مصالح العباد فى المعاش والمعـاد ، وهى عـدل كلها . ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكم كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحـكمة الى العبث ، فليست من الشريعة ، وان ادخلت فيها بالتأويل » .

فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها ، وهى نوره الذى أبصر به المبصرون ، وهــداه الذى احتذى به المهتدون ، وشفاؤه التــام ، به دواء كل عليل ، وطريقه المستقيم الذى من استقام عليه فقــد استقام على سواء السبيل وهى العصمة للناس ، وقوام العالم ، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا ، هدف الشارع الأكبر هو العدل ، فاذا ظهرت امارته ، وأسفر وجهه بأى طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ، واى طريق واى نهج أدى الى القسط والصراط المستقيم ، فهو دين الله وشرعته .

وقف المجددون من الدين والتراث القومى موقف الناقد النزيه، فهم يحللون ما علق به من شــوائب ، على مر الأيام ، ويفصــلون الجوهر الأصيل عن الدخيل الزائف ، ويجمعون العناصر الصحيحة ويتمسكون بها .

وبهذه الروح واجهوا بعض الخرافات التى التصقت بالدين ، والدين منها براء ، وبنفس هذه الروح واجهوا المدنية الغربيــة فالصالح منها رحبوا به ، والطالح منها رفضوه .

وكان معيارهم فى القبول والرفض هو الدين الصحيح ، فما طابق الدين ومصلحة المجتمع قبلوه ، وما ناقضه رفضوه .

ولو سار الأمر الى نهايته الطبيعية لكان من الطبيعى أن تعقب حركة التحليل والتمحيص والاختيار حركة التركيب التى تجمع العناصر الصحيحة فى وحدة جامعة تكون دستورا للناس فى حياتهم الفردية والاجتماعية .

ان من الواجب أن نقتفى أثر الرعيل الأول من المجــددين فنتم ما بدءوا ، ليصل العالم الاسلامى الى ما يرجى له من رقى وتقدم ونهوض .

القرآن وحركة التجديد

كان القرآن هدى الأمة الاسلامية الذى اهتدت به فى صدر الاسلام واستمدت منه نشاطها وحيويتها ، فكان لذلك الأثر الأكبر فى تلك الصورة الرائعة التى كانت لها .

وليس شك فى أن القرآن سيظل أقوى مؤثر فى حياة الأمة الاسلامية ، لان القرآن المجيد ، قد احتوى من النظم والقواعد والمبادىء والتلقينات ، ما من شأنه أن ينهض بها الى ذرى الكمال فى كل مجال من مجالات الحياة ، ويوجهها فى أحسن السبل وأشرفها وأنزهها واعدلها وأتمها صفــاء وسناء وكمالا وحقا . ولأن الدين الاســلامى ، الذى يمثله القــرآن ، ليس دينا روحيا أو أخلاقيا أو عنصريا أو محليا فحسب ، كما هو حال جل الديانات الأخرى ، بل هو دين كيان وسياسة ونظام وعمل وواقع ، ثم هو دين انسانية شاملة ، وامام عام سياسى واجتماعى ، يدخل فى نطاقه النـــاس جميعهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقـــاتهم ومواطنهم ، فلا جرم أن يكون مدد الأمة الاسلامية فى حياتها الجديدة ، تستمد منه نشاطها وفعاليتها وحيويتها ، وتستبين منه صراطها المستقيم الذى تسير عليه فى شؤونها السياسية والاجتماعية والأخلاقيـــة والشخصية ، حتى تكون لها تلك الصورة التى نتوق اليها ، والمركز الذى تتطلع اليه (١) .

كان الرسول (٢) صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى تدبير شئونهم العامة : من تشريع ، وقضـــاء ، وتنفيـــذ ، وكان قانونه فى هـــذا التـــدبير ما ينزل عليـــه من ربه جلت قـــدرته ،

---

(١) محمد عزة دروزة : الدستور القرآنى : ص ٣ ، ٤ .

(٢) عبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية ص ٦ — ٨ .

وما يهديه اليه اجتهاده ونظره فى المصالح ، وما يشير به أولو الرأى من صحابته فيما ليس فيه تنزيل . وكان التدبير بهذه المصادر يتسع لحاجات الأمة ويكفل تحقيق مصالحها .

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته هاديين لا يضل من اهتدى بهما فى تدبير شئونه وهما : كتاب الله ، وسنته ، وأقام منارا ثالثا يستضاء به فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة — وهو : الاجتهاد الذى مهد طريقه ، ودعا اليه بقوله ، وعمله ، واقراره . ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يبلغ الاحكام : مقرونة بعللها والمصالح التى تقتضيها ، وفى هذا ايذان بارتباط الأحكام بالمصالح ، ولفت الى أن الغاية انما هى : جلب المنافع ، ودرء المفاسد .

وقد أقر الرسول اجتهاد من اجتهد فى حضرته من صحابته ، وقال للمجتهد : ان أصبت فلك أجران ، وان أخطأت فلك اجر . وكان ينهى عن الشىء لمصلحة تقضى بتحريمه ثم يبيحه اذا تبدلت الحال وصارت المصلحة فى اباحته ، كما فى حديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها » .

هذا كله وكثير مثله بث فى نفوس المسلمين أن غاية الشرع هى المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله . وأنار لهم أن السبيل الى تحقيق المصالح حيث لا نص انما هو اجتهاد الرأى .

وقد ظهرت هذه الروح فيما سلكه الراشدون بعد وفاة الرسول فى تدبير الشئون العامة للدولة فكانوا يهتدون فى نظمهم وسائر تصرفاتهم بما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وان حدث لهم ما ليس له حكم فى كتاب ولاسنة اجتهدوا رأيهم واتبعوا ما أدى اليه اجتهادهم مما رأوا فيه مصلحة الأمة ولا يخالف روح الدين . وكثيرا ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص . وما أتهم مجتهد

منهم انه على غير الحق أو تنكب طريقه ، ما دامت الغاية : المصلحة وعدل الله . والوسيلة : اجتهاد الرأى وانعام النظر .

فلما نشأ علم الكلام ، وعلم الفقه ، اتجه الناس لمعرفة الأحكام الى الفقه ومعرفة العقائد الى علم الكلام .

وقد اتجه المفسرون الى تفســير القرآن المجيــد ، كنص يراد شرحه وايضاح معانيه ، فشرحوا غامضه وحرروا معانيه وأشاروا الى ما يتضمنه من أصول ومبادىء .

ولمــا بدات حركة التجديد المعاصرة تبدل الحال ، وصار من المحتم اشراك القرآن فيها ، فان حركة التجديد تستهدف الاحتفاظ بالاسلام قاعدة للحياة ، ولكن على أساس من الاقتناع العميق بأنه يضم أعلى العقائد وأسمى النظم .

يقول السيد رشيد رضا :

« ان الشريعة الاسلامية ــ بما تقرر فيها من قاعدتى الاجتهاد ورعاية الأصلح ــ كانت من الشرائع التى توافق كل زمان ومكان ، وتجيز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وان خالف النص ، مع اعتبار هذه القاعدة شرعا أيضا ، خلافا لما يتقوله عليها المتقولون من أنها شريعة ضيقة توافق زمانا غير زماننا هذا ، ومكانا غير مكان الأمم الراقية لهذا العهد .

ومنشأ قولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية ، وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها ، يساعدهم على ذلك مايرونه من تعصب بعض علمــاء الشريعة لمــــا جاء فى كتب الفروع دون الأصول ، وردهم لكل ما لم يرد فيها من أسباب التيسير ، وان ورد فى أصول الشريعة وكلياتها ، على أن فى كتب الفروع من الأحكام التى لا تستند الى دليل قطعى ما لا يعد ، ومبناها الاجتهاد أو الرأى والقياس ، ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهــذه الأحكام على

الرجوع الى أصل الشريعة ، مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والأمة » .

كان لابد من التحرر من سلطان القديم ، ونبذ التقليد الى مهمة التجديد بأداة كاملة من الاجتهاد الحر المستقل الذى لا يخضع الا لقوة الدليل ولا يغفل مصالح الانسان وحاجات العصر ومنطقه

والاجتهاد يعنى أول ما يعنى الرجوع الى مصادر الاسلام ، والقرآن المجيد هو المصدر الأكبر الذى يجب أن يكون المرجع الأول فى فهم الدين ، واعطاء العقيدة والشريعة صورتها الجديدة النقية .

عرف المجددون هذه الحقيقة الواضحة : لا غنى عن القرآن المجيد فى بناء صرح الاسلام الذى تتفتح له القلوب والعقول ويكتب له النصر العزيز فى معركة الصراع المحتدم بين الثقافة الاسلامية والمدنية الغربية .

« والدعوة الى الاستمداد بالقرآن (١) والاهتداء بهداه والسير عليه تحتوى جميع عناصر الاستجابة . لما احتواه من تلك النظم والقواعد والمبادىء والتلقينات ، ولا يستطيع أى فرد أن يرتاب فى قوتها وتأثيرها النافذ العميق فى نفس الأمة ، اذا ما صدرت عن قوة وجد وايمان وحسن فهم .

على أنه مما يدعو الى الغبطة بدء حركة مباركة فى هذا المجال فى مختلف البلاد العربية والاسلامية ، حيث أخذت أصوات الدعاة ، منذ بدء اليقظة الجديدة ، تهتف بالمسلمين لافتة انظارهم الى القرآن ونظمه ، والصدر الاسلامى الزاهر السناء الذى كان مدده ، وحيث أخذت هذه الأصوات تتوالى وتشتد فيتأثر بها المسلمون شيئا فشيئا ، ويصيخون اليها ، بل يستجيبون لها .

فتجلية الفصول الآيات القرآنية ، وخاصة ما يتصل منها بشؤون

---

(١) محمد عزة دروزة : الدستور القرآنى ص ٤ ، ٥ .

الحياة على اختلاف وجوهها وتنوع غاياتها وبأسلوب سهل موجز ، من أجل ما يقوم به الدعاة من خدمة القرآن وأهدافه السامية ، من ناحية ، وللمسلمين عامة وناشئتهم خاصة التى كادت تنبت صلتها به ، من ناحية أخرى . لا سيما ان جل تلك الفصول متصل بشؤون الحياة ، ومحتوما يجب ان يسير عليه المسلم والمجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية ، من نظم وأحكام ومبادىء وقواعد وتلقينات سياسية واجتماعية واخلاقية وانسانية ونفسية ، وما ينبغى أن يكون عليه المسلم والمجتمع الاسلامى وأولو الأمر فى دولتهم ، ومن صفات وأخلاق خاصة وعامة ، تضمن تحقيق تلك الصورة والمركز

وقد فند الأستاذ محمد دروزة الزعم القائل بأن هذه الدعوة تتعارض مع المصالح القومية العربية فقال:(١) .

« أولا : انه ليس لأحد أن ينكر أن للامجاد التاريخية أثرا عظيما فى حياة الأمم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وضرباته الموجعة ، وان الاسلام الذى جاء على يد الرسول العربى صلى الله عليه وسلم ، بقرآن خلدت به اللغة العربية وتقدست ، والذى كان له من الأثر العظيم فى حياة البشر وحضاراتهم وتوجيههم نحو المثل العليا ، هو من أعظم الأمجاد التى تستطيع الأمة العربية أن تفخر وتعتز وتزهو بها ، ومن أقوى الحوافز على تحريك الهمم الى استئناف حياة المجد والقوة ، بل أعظمها وأقواها ، وأن فى استمداده ، فى تحريك الأمة العربية وبعثها من جديد أعظم الفوائد وأقواها ، وأن فى محاولة اهمال ذلك ، أو التهوين منه ، أو تجاهله جحودا منكرا لتلك الأمجاد ، وتعطيلا اثيما لهذه الحوافز .

وثانيا : ان الاسلام الذى يمثله القرآن والسنة ، لم يهمل ناحية التنويه بالعرب ومركزهم وشأنهم فى الكيان الاسلامى العام ، بل قرر ارتباط مجد العرب وعلو شأنهم به ، وخلد لهم التلقين القوى

(١) الدستور القرآنى : ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

فى حق البروز والشأنية فى هذا الكيان ، وحملهم مهمة هداية البشر وترقيتهم واقامة بنيـــان الانســــانية على اقوى الأسس واعدلها وأفضلها ، ونبه على عظيم مسئوليتهم عن هذه المهمة ، وجعل الصلة لاحمة بين ذله وذل العرب ، وعزته وعزة العـــرب ، حيث ورد فى القرآن آيات عديدة : منهـا ما فيــه التنبيه على ما فى الرســـالة المحمدية من علو ذكر لقوم النبى ، ومنها ما فيه تقرير جعل العرب عدولا وشهداء على غيرهم ، ومنها ما فيه الاشارة الى اصطفاء الله العرب للمهمة العظمى وتقرير شأنهم العظيم فى الكيان الاسلامى .

فليس من تعارض ، والحالة هذه ، بين تعاليم القرآن وبين الطموح الى الأمجاد القومية العربية ، والعزة القومية العربيـــة ، بل انه ليصح أن يقال : ان هذا من مقتضى تلك التعاليم ، لأن فى قوة العرب ومجدهم قوة للاسلام ومجده ، يضاف الى هـذا أمر خلود اللغة العربية وتقديسها على اعتبارها لغة القرآن والعبادات الاسلامية التى يجب على كل مسلم أن يفقهها ويقدسها ، وما فى هذا من الوسيلة الى نشر النفوذ العربى ، وسيادة اللغة العربية ، وخفقان رايات العرب الأدبية والروحية والثقافية ، بل والسياسية فى مختلف انحاء الأرضين ، مما تبذل الدول الكبرى فى سبيله طائل الأموال وعظيم الجهود ، دون أن تناله كما تشتهى . فى حين أن القرآن قد أوجبه كواجب دينى وجدانى يندفع فيه المسلم اندفاعا دينيا ووجدانيا . وقد أثبتت وقائع التاريخ ان العرب فى صـــدر الاسلام قد فهموا هذا فهما صحيحا وطبقوه على الوجه الذى فهموه ولم يروا بينه وبين تعاليم القرآن أى تناقض . وأثبتت كذلك ان ما كان من استعلاء غير العرب على العرب انما كان لعوامل سياسية أخرى لم تعـــد خافيـــة . ولا تمت بسبب الى تعـــاليم القرآن والاسلام ، ولا يصح القول أنها كانت نتيجة لها .

وثالثا : ان الخوف من عودة التـــاريخ كرة أخرى ، وابتلاع العرب أو تمزيقهم من قبل الأمم الاسلامية الأخرى ــ قد أصبح

منتفيا ولم يبق منه الا ذكرى التاريخ ، لأن الأمم المذكورة قد اصبحت منفردة ومستقلة ، ولم يبق فى نطاق الاحتمال أن تستأنف قيام كيان اسلامى سياسى موحد مثل الذى قام فى العصور الاسلامية السالفة ، ولأن هذا انما كان نتيجة لظهور الاسلام واستعلائه وزحف العرب وفتوحاتهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، حيث قام بالضرورة سلطان عام وسياسة عامة وكيان سياسى عام، وكان ما كان من التناحر على السلطان والسيادة فى هذا الكيان ، والاستعانة بالعناصر غير العربية ، مما فسح المجال لهذه العناصر بالتدخل ثم الاستعلاء .

والعرب اليوم ليسوا فى وضع كذلك الوضع . ولذلك ليس من المحتمل أن يصيروا الى ذلك المصير .

رابعا : ان التنديد أو التحظير الذى ورد ضد الدعوة الى العصبية انما كان فى الحقيقة ضد الدعوة الى العصبية القبلية التى كانت تقاليد العرب قائمة عليها ، والتى كانت تعتبر أساسا للوحدة الاجتماعية عندهم ، وحائلة دون تكتل العرب ووحدتهم القومية العامة ، بحيث استهدف هذا التنديد أو التحظير اضعاف تلك العصبية الضيقة ، واقامة الوحدة القومية ، والأخوة القومية العامة مقامها فى صدد تكوين الأمة وبناء كيانها العام ، كما هو معلوم لكل من درس أحوال العرب وتقاليدهم الاجتماعية وسير الدعوة النبوية والسيرة النبوية . وقد كان هذا التنديد أو التحظير قبل انتشار الاسلام الى خارج جزيرة العرب ، والى أمم غير عربية وفى ظروف انحصار الدعوة فى العرب وجزيرتهم ، وفى هذا ، على ما هو المتبادر ، دعامة حاسمة لما قررناه .

وخامسا : ان تعاليم القرآن لا تحتوى أى مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب المسالمين والمتضامنين مع مسلميهم — اخوانا لمسلميهم فى القومية ، ومن التعامل معهم على هذا الاعتبار فى نطاق الدولة والكيان الاجتماعى معا .

وهذه التعاليم أبعد ما تكون عن اثارة أى بغضاء أو عـداء لغير المسلمين المسالمين عامة . بل انهـا تحث بصراحة ، على البر بهم والاقساط اليهم ، ومما لا ريب فيه أن لغير المسلمين من العرب المندمجين باخوانهم اندماجا قوميا ، والمتضامنين معهم فى السراء والضراء ، والمصالح والمطامح ، الأولوية فى مدى هذا الحث .

هذا الى أن الفخر القومى بالاسـلام ونبى الاسـلام وقرآن الاسلام فخر عام للعرب ، مسلميهم ومسيحييهم ، ولا نعتقد ان هناك عاقلا لبيبا من هؤلاء ، لا يندمج فيه .

* * *

اتجه المجددون الى دراسة القرآن المجيد دراسـة حديثـة لا تقف عند حد تفسير غامضة ، وتطبيق علوم اللغة ، من نحو وصرف ، بل عمدوا الى بيان ما يتضمنه من أحكام ، ونظم وأفكار ومبادىء ثم ما تعنيه هذه الأفكار والمبادىء للحياة الانسانية فى العصر الحاضر .

فالأستاذ الامام محمد عبده — مثلا — يقوم منهجه فى تفسير القرآن الكريم على هذه الأسس (١) :

١ — اخضاع حوادث الحياة القائمة فى وقته لنصوص القرآن الكريم ، اما بالتوسع فى المعنى ، أو يحمل الشبيه على الشبيه

٢ — اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة ، لا يصح الايمان ببعضه ، وترك بعض آخر منه ، ثم فهم بعضه متوقف على فهمه جميعه .

٣ — اعتبار السورة كلها أساسا فى فهم آياتها ، واعتبار الموضوع فيها أساسا فى فهم النصوص جميعها التى وردت فيه .

---

(١) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسـلامى الحديث وصلته بالاسـتعمار الغربى ص ١٤٣ .

٤ ـ ابعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن وابعاد تفسيره عن أن يجعل مجالا لتدريب الملكة اللغوية .

٥ ـ عدم اغفال الوقائع التاريخية ـ فى سير الدعوة الى الاسلام ـ فى تفسير الآيات التى نزلت فيها .

والشيخ محمد عبده بهذا المنهج فى تفسير القرآن الكريم ، لم يعد للقرآن حرمته واعتباره فقط ، بل رسم منه دائرة تستطيع أن تحيط بالحياة الانسانية ، فى حاضر الانسان المسلم ، كما احاطت فى الماضى البعيد ، بحياة المسلم على عهد الدعوة ، وفى العهد القريب منها بعد ذلك .

وقد دعا محمد اقبال احرار الفكر من المسلمين الى تجديد الفكر الاسلامى فقال :

« ان العالم الاسلامى ـ وهو مزود بتفكير عميق أخاذ ، وتجارب جديدة ـ ينبغى عليه أن يقدم فى شجاعة على اتمام التجديد الذى ينتظره .

على أن لهذا التجديد ناحية أعظم شأنا من مجرد الملاءمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها ، فان الحرب العالمية الكبرى بما خلفته من نهضة .. والتجربة الاقتصادية الجديدة التى تجرب على مقربة من آسيا الاسلامية ، يجب أن تفتح أعيننا على ما ينطوى عليه الاسلام من معنى ، وعلى مصيره .

ان الانسانية تحتاج اليوم الى ثلاثة أمور :

١ ـ تأويل الكون تأويلا روحيا .

٢ ـ تحرير روح الفرد .

٣ – وضع مبادىء أساسية ذات اهمية عالمية توجه تطور المجتمع الانسانى على اساس روحى (١) .

ويقول : وبما ان القاعدة الأساسية فى الاسلام تقول ان محمدا خاتم الأنبياء والمرسلين ، فانه ينبغى ان نكون من اكثر شعوب الأرض فى الحرية الروحانية .

والرعيل الأول من المسلمين الذين تخلصوا من الرق الروحى فى آسيا الجاهلية لم يكونوا بحيث يستطيعون ادراك المعنى الصحيح لهذه القاعدة الأساسية .

فعلى المسلم اليوم أن يقدر موقفه ، وأن يعيد بناء حياته الاجتماعية فى ضوء المبادىء النهائية ، وأن يستنبط من أهداف الاسلام – التى لم تتكشف بعد الا تكشفا جزئيا – تلك الديمقراطية الروحية التى هى منتهى غاية الاسلام ومقصده (٢) .

ويقول : فالمجتمع العصرى بما فيه من كفاح مرير بين الطبقات يجب أن يحملنا على التفكير ، ولو اننا درسنا شريعتنا بالنسبة للانقلاب المنتظر فى الحياة الاقتصادية الحديثة فان من المرجح أن نكشف فى أصول التشريع عن نواح جديدة لم تكشف لنا بعد مما يمكننا أن نطبقه بايمان متجدد بحكمة هذه المبادىء (٣) .

ان تجديد الفكر الاسلامى أصبح أمرا لا مناص منه ، ولا مندوحة عنه ، لمواجهة قضايا الانسان فى العصر الحديث .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام : ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٠٨ .
(٣) المصدر نفسه : ص ١٩٦ .

القـــرآن والمجتمـــع

القرآن المجيد هو القوة الفعالة التى اعتمدت عليها رسالة الاسلام ، فالقرآن يرشد الناس الى الحق ، والى الصراط المستقيم ويعلمهم كيف ينظمون حياتهم ، ومجتمعهم على الوجه الذى يسعدهم فى الدنيا بالعزة والقوة ، والتمكين والهيمنة على الحق ، وفى الآخرة ، بالرحمة الدائمة ، والنعيم المقيم فتكمل للانسان سعادته فى الدنيا والآخرة .

أنزل الله تعالى القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفى العالم مجتمعات متباينة الأسس مختلفة الغايات ، استمدت حياتها من أوضاع بشرية ، وأفكار انسانية صرفة ، فأتخذ بعضها العصبية الجنسية أساسا للحياة ، واتخذ البعض الآخر أساس حياته العصبية الاقليمية . والعصبية الجنسية والعصبية الاقليمية كلتاهما وليدة نزعات خاصة لا تمت الى القلب الانسانى ولا الى الصالح العام البشرى ، وفيما بينهما يذوب الضمير العالمى ، والروح الانسانى ، ويقضى على الرحم العام ، الذى يقضى بالتعاون العام ، وبالسلام العام ، ورعاية المصالح العامة .

ان حكمة الله العلى القدير تأبى أن يخلق بشرا ويسويه ويعدله بالعقل ، ويفضله على كثير من خلقه ، ويجعله خليفة فى أرضه يظهر رحمته وجوده ، ثم يتركه على هذا الوضع ، يأكل بعضه بعضا ، فكان من رحمته جلت قدرته ، ان انزل القرآن الكريم ، ارشادا وهداية لما يجب أن يسلكه فى تنظيم حياته ، ويتخذه أساسا لمجتمعه ، فنحى الجنسية العصبية ، والاقليمية ، ونحوهما من الأسس البشرية عن مكانة الأساس الأول للجماعة الانسانية . وسما بالانسانية عن أن يكون اجتماعها وترابطها ، راجعين الى

اعتبارات كثيرا ما تدفع بأصحابها الى التفرق ، وتفرى بينهم البغضاء ، وتقضى على روح التعاون والتراحم وتطمس معالم السعادة ، وجعل الأساس فى بناء المجتمعات الاعتصام بمبدأ الخير العام والرحمة الواسعة ، والعدل المطلق .

((ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (١)))

وبذلك تكون الانسانية مهما اختلفت جنسياتها ، وتباعدت أقاليمها ،وتعددت مذاهبها وآراؤها تدور حول مبدأ ثابت ، فتشعر بالوحدة ، وتنشط فى رفعة شأنها والقيام بواجبها ، يأخذ قويها بيد ضعيفها ، ويواسى غنيها فقيرها ، وبذلك تنمو الحياة وتزدهر ويسعد الناس . **((يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير (٢)))** .

بنى القرآن الكريم تنظيمه للحياة على هذا الأساس ، وجاءت كل شرائعه وأحكامه تعمل فى تقويته وتدعيم أركانه .. والانسان له فى هذه الحياة شخصيتان ، شخصية ، يسأل بها عن نفسه ، فى جسمه وعقله وروحه ، ثم فى عمله وماله . وشخصية أخرى يكون بها لبنة فى بناء المجتمع يسأل بها عما يقدمه لمجتمعه أو يقدمه المجتمع له ، وبقدر ما يكون للانسان من ادراك الحقائق ، وكريم الخلق ، وقوة العزيمة ، وسمو الروح ، ونبل الغاية ، يكون لمجتمعه من ذلك كله .

وبقدر ما يصاب به الانسان من تسلط الخرافات والأوهام عليه ، وانحلال الخلق ، ووهن العزيمة ، وانحطاط الروح ، ودناءة الغاية ، يكون لمجتمعه من كل ذلك .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠١ .
(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

فالمجتمع فى الواقع مجموعة افراد ، وما الافراد فى واقعها الا المجتمع الذى منها يتكون ، فسعادته من سعادتها ، وشقاؤه من شقائها ، وصلاحه من صلاحها ، وفساده من فسادها ، وبناء على ذلك فالبحث عن الأساس الذى عليه يبنى المجتمع ، هو بحث عن اللبنات التى منها يتكون .

فاذا كانت اللبنات قوية ، صلبة متماسكة ، كان المجتمع قويا ، صلبا ، يؤمن بالتراحم والتعاون على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الاثم والعدوان ، لكن هذا المجتمع لابد له من مرشد يهديه سواء السبيل ، والقرآن كتاب الله ، يرشد الى الخير والعدل . **« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا (١) »** .

وقد أملى القرآن على المسلمين الفضائل الخلقية من صرامة ارادة وقوة نفس ومحاسبتها والانصاف منها ، وكان ايمان المسلم اقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق ، وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الايمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير وخيالا مروعا ، لا يرتاح معه حتى يعترف بذنبه امام القانون ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئنا مرتاحا تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة .

يروى المؤرخون الثقات فى ذلك طرائف لم يحدث نظيرها الا فى التاريخ الاسلامى ، فمنها :

ما روى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ان ماعز بن مالك الأسلمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله انى ظلمت

---

(١) سورة الاسراء : ٩ .

نفسى وزنيت وانى أريد أن تطهرنى ، فرده ، فلما كان من الغـد أتاه فقال : « يا رسول الله انى قد زنيت » فرده الثانية ، فأرسـل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه فقال :

— اتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟

فقالوا :

— ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى .

فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضـا فسأل عنه فأخبروه انه لا بأس به ولا بعقله . فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت :

— « يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى »

وانه ردها ، فلما كان الغد قالت :

— « يا رسول الله لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا ؟ فوالله انى لحبلى .

قال :

— أمالا فاذهبى حتى تلدى .

قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته .

قال :

— فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه .

فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت :

— هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام .

فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لهـا الى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبى الله سبه اياها ، فقال :

ـ مهلا يا خالد ، فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابهـا صاحب مكس لغفر له (١) »

ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وكان هذا الايمان حارسا لأمانة الانسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزوع أمام المطـامع والشهوات الجـارفة وفى الخـلوة والوحدة حيث لا يراه أحـد ، وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخـاف أحدا .

وقد وقع فى تاريخ الفتح الاسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات الى أهلها والاخلاص لله تعالى ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ، وما ذاك الا نتيجة رسـوخ الايمان ومراقبـة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان .

قال الطبرى : لمـا هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقبـاض اقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقبـاض ، فقال والذين معه ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه .

فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به

فعرفوا ان للرجل شأنا فقالوا :

ـ من أنت ؟

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحدود .

فقال : لا والله لا اخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى احمد الله وارضى بثوابه . فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس (١)

لقد عمل القرآن المجيد على تحرير الانسان من ربقة اخيه الانسان ، عمل على القضاء على التبعية ، وعلى الرق والعبودية له ودعا الدولة الى أن تنفق جانبا من الأموال التى تحصلها فى فك الرقاب وتحرير العبيد .

وحرر القرآن الانسان من المخاوف الطبيعية — تلك المخاوف التى كان يجرها على نفسه بتفسيره للظواهر الطبيعية تفسيرا خاطئا لا يتصل من قريب أو بعيد بالنواميس الطبيعية والقواعد العلمية .

ودعا القرآن الدولة الى كفالة حد أدنى من المعيشة يحفظ على الانسان كرامته وانسانيته .

ودعا الأغنياء الى أن يسهموا فى هذه العملية بتلبية احتياجات المحتاجين والقضاء على عوز المعوزين ، وجعل ذلك من علامات الايمان .

ونبدأ منذ الآن فى التفصيل ..

(١) تاريخ الطبرى : ج ٤ ، ص ١٩ .

التحرر الوجداني

بدأ الاسلام بتحرير الانسان من سيطرة الأوهام والخرافات والخضوع لما لا يملك نفعا ولا ضرا ، والتوسل بالوسائل الزائفة لحماية نفسه ، واتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

((قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (١))) .

يحرص الاسلام على هذا المعنى حرصا شديدا ، وذلك لما في عبادة غير الله والخضوع له والتوسل به من تسخير لقوى الانسان وتعطيل لمواهبه واذلال لنفسه ، فضلا عما في ذلك من افساد للقوى البشرية والأخلاق الانسانية ، في حين أن التوحيد والايمان بإله واحد متصف بجميع صفات الكمال والحق والعدل والخير والقوة، من شأنه أن يحرر تلك القوى ويفسح المجال لانطلاقها في آفاق أرحب دون أن تتقيد بغير قيود الحق والعدل والخير ، والدعوة الى الله قد انطوت على تقرير ما في الايمان بالله وحده ، والاتجاه اليه وحده بالعبادة والدعاء من فوائد جمة متصلة بشؤون الحياة الدنيا صلة وثيقة ، من حيث توكيد استجابة الله لداعيه ، وذكره لذاكريه ، وقدرته وحده على تفريج ما يحل بهم من خطوب ، ومنحهم ما يرجونه من رغائب .

((أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات

(١) آل عمران : ٦٤ .

البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أءله مع الله ، تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين (١) » .

وقد أعاد الاسلام للانسان قيمته ، ليصحح له وضعه فى الحياة والوجود :

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين (٢) » .

وكان وضع الانسان فى الحياة والوجود هذا الوضع لأنه المخلوق الذى أعد بطبيعته للانتفاع بالوجود . فالدعوة الى الايمان وحده تنطوى على تعريف الانسان بمنزلته ووضعه وقيمته فى الحياة . ومن الكرامة للانسان ، كمخلوق متميز على ما عداه من المخلوقات ، أن يعرف وضعه الصحيح وقيمته الذاتية ، ومن المهانة له ، والسخرية منه ، أن يبقى فى دائرة ما انحدر اليه فى الاعتقاد فى عبادة غير الله ممن هو دونه أو مثله فى الخلق وهى دعوة التحرير ، والتحرر دعوة الى العزة والكرامة ، دعوة الى الانطلاق فى الوجود (٣) .

ولكى يتحرر الوجدان الانسانى تحررا كاملا ، رد الاسلام القيم الحقيقية للانسان الى اعتبارات معنوية ذاتية ، كامنة فى نفس الفرد ، أو واضحة فى عمله ، وبذلك يضعف تأثير القيم المادية ، وتضؤل آثارها النفسية .

---

(١) سورة النمل : ٦٢ – ٦٤ .
(٢) سورة غافر : ٦٤ .
(٣) الفرد والمجتمع فى الاسلام للمؤلف ص ١٤ .

يقول القرآن المجيد :

« وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين ، قل : ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » (١) .

ان كثرة الأموال والأولاد ، لا تجعل لهم ميزة « الا من آمن وعمل صالحا » فالايمان وهو قيمة مكنونة فى الضمير ، والعمل الصالح وهو قيمة واضحة فى الحياة ، هما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار .

والاسلام لا يغض مع هذا من قيمة المال ولا من قيمة الأبناء : **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »** زينة بيد أنهما ليسا قيمة من قيمها التى ترفع وتخفض : **« والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا (٢) »** .

يستهدف الاسلام تحرير النفس الانسانية ، تحريرا كاملا ، ليحقق لها العدالة الاجتماعية ، ولذلك فهو لا يكتفى بأن يحرر النفس الانسانية من عبودية القداسة ومن خوف الموت والفقر والذل والهوان ، ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيم الاجتماعية ، انما يحررها أيضا من لذاتها وشهواتها ، ومطامعها وأهوائها .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلك ؟ ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب

(١) سورة سبأ : ٣٥ ــ ٣٧ .

(٢) سورة الكهف : ٤٦ .

النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقــين والمستغفرين بالأسحار)) (١) .

وليست هــذه دعوة الى تخدير الجمــاهير ولا دعوة الى ترك طيبات الحياة ؛ انما هي دعوة للتحرر والانطلاق من أسر الشهوات والغرائز ، ثم لا ضرر بعد ذلك من الاستمتاع بالحياة حين يملكهــا الانسان ولا تملكه .

((قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعبــاده والطيبــات من الرزق)) .

ان الاسلام دين اليسر والاعتدال ، لا دين العسر والتشــــدد والتنطع والانهماك فى العبادات ، وهجر اللذات ، والاضرار بالنفس فلا ينبغي للمسلم أن يكون مفرطا بهجر اللذات ، ولا مفرطا بالانكباب عليها ، لما فى كلا الطرفين من مخالفة الفطرة المستقيمة والبعــد عن الجادة وخير الأمور الحنيفية السمحة المعتدلة .

قال تعالى : **((يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون (٢))) .**

واذا انعمنــا النظــر بكل الفكر الواعى منــا ، فيمــا ورد فى صدد الواجبات التعبدية وجدناه ينطوى على تقدير ما فى القيام بها من فوائد جمة ، متصلة بشئون الدنيا اتصالا وثيقا ، فضــلا عن وجوبها لله سبحانه واستحقاقه لها وحده ، فالصــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ وتدفع الفرد الى القيام بواجباته نحو الناس ، وتساعده على تحمل التضحيات ، وتهذب نفسه وتزكى أخلاقه .

يقول الله تعالى :

((أتل ما أوحى اليك من الكتاب واقم الصلاة ، ان الصــلاة

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ ـ ١٧ .

(٢) سورة المائدة : ٨٧ ـ ٨٨ .

تنهى عن الفحشـــاء والمنكـــر ، ولذكـــر الله أكبر ، والله يعــلم ما تصنعون (١) » .

« ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٢) » .

وفى الصيام ترويض للنفس على الصبر ، وفى الصيام تضـحية باللذات ، ومجتمع تكون له هذه الرياضة الروحية شهرا فى كل سنة ، انما يكون له افضل الوسائل الى الاصـلاح والتهـذيب النفسى والخلقى .

وغنى عن البيان أهداف الزكاة والجهاد ، فان صلتهما بشئون الحياة الدنيا أوضح من أن تحتاج الى شرح أو بيان . وقد يتحرر الانسان من كل ما يغض شعوريا من كرامته ، ولكنه يحتـاج الى الرغيف ، والبطن الجائعة لا تعرف المعانى النبيلة ، وقد يضطر الى الاستجداء ، فتذهب كرامته كعصف مأكول ، ولذلك فان الاســلام يتولى الأمر بالتشريع لمنع أسباب الحاجة والقضاء عليها حين توجد فيجعل للفرد حقا فى الكفاية مفروضا على الدولة ، وعلى القـادرين فى الأمة يعاقب عليه يوم القيامة .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٢) سورة المعارج : ١٩ — ٢٥ .

فالاسلام يستهدف العزة والكرامة ، عن طريق العمل النـافع والسعى الحميد ، والكد والنصب فى ميدان الحياة ، والحصول على الرزق الحلال من طريقة الحلال ، ليكون الانسان نافعا لنفسه وأهله وعشيرته ، نافعا لغيره من الناس ، ومن لوازم العزة والكرامة والتحرر الوجدانى أن ينأى الفرد عن سؤال الناس ، ففى الاستغناء عن أموالهم ومتاعهم عزة . أما اموال الزكاة فهى حق ، حق يؤخذ ، لا فضل يوهب : ((**وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**)) (١) . حق تأخذه الدولة فتنفق منه فى مصالح المسلمين .

---

(١) سورة الذاريات :١٩ .

المساواة الانسانية الكاملة

يقرر الاسـلام أن النـاس سواسية كأسـنان المشط ، وأنه لا تفاضل بينهم الا على أساس أعمالهم وكفاياتهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه .

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعـارفوا ، ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير)) (١) .

والناس من أب واحد وأم واحدة وأصل واحد ، وانقسامهم الى شعوب وقبائل انما هو متصل بنظام الكون والمجتمع . ولا يصح أن يكون مبررا لأى تفاوت وتمايز بينهم .

وشرع الاسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص الأنسانية فى الدنيا والآخرة . قال تعالى :

((فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)) (٢) .

والمرأة ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، مسئولة عن نفسها ، وعن عبادتها ، وعن بيتها ، وعن جماعتها .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٥ .

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

واذا كانت المرأة مسئولة ، مسئولية خاصـــة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهى فى نظر الاسلام مسئولة أيضا مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وصرح القرآن الكريم بمسئوليتها فى ذلك وقـرن بينها وبين الرجل فى تلك المسئولية كما قرن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الايمان والاخلاص لله وللمسلمين .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ويقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » (١) .

ان مســئولية الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، هى اكبر مسئولية فى نظر الاسلام وقد سوى الاسلام فيها بصريح القـرآن بين الرجل والمرأة .

وأباح الاسلام للمرأة أن تتعلم ، بل جعله فريضة عليها ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وبهذا صار الاسلام أول من قرر تعميم التعليم بين الجنسين على السواء ، وللمرأة أن تبلغ منه الحد الذى تبتغيه وتريده .

وللمرأة أن تملك ، وأن تتصرف فيما تملك ، ولها أن توكل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها ، ولها أيضا أن تضمن غـيرها وأن يضمنها غيرها .

اما فى الزواج . فقـد صحت الأحاديث الكثيرة فى وجـوب إستئذان المرأة عند زواجها وحتمت على الثيب أن تصرح بالاذن ،

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .

واكتفت من البكر ترخيصا لها ان تجرى على عادتها فى الحياء الذى يمنعها من التصريح ، وأن يكون منها ما يدل على الرضا ، فالحق حقها ، والشأن شأنها .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، واذنها صمتها » .

وقال ابن القيم : « وهذا — يريد رضاها بالزواج وعدم اجبارها — هو ما ندين لله به ، ولا نعتقد سواه ، وهو الموافق لحكم رسول الله ، وامره ونهيه ، وقواعد شريعته ، ومصالح امته ، الى ان قال : ان البكر العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من ملكها الا برضاها ولا يجبرها على اخراج اليسير منه الا باذنها ، فكيف يجوز أن يخرج نفسها منها بغير رضاها ؟ ومعلوم أن اخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختاره » .

ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا من مالها ، قل ذلك الشىء أو كثر .

قال تعالى :

« وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا ، اتاخذونه بهتانا واثما مبينا ؟ وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » (١) .

واذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئا مما سبق أن أتاه لزوجته ، فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئا من ملكها الأصيل ، الا أن يكون هذا أو ذاك برضاها وعن طيب نفس منها . وفى هذا يقول الله تعالى :

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا » (٢) .

---

(١) سورة النساء : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سورة النساء : ٤

ولا يحل للزوج كذلك أن يتصرف فى شىء من أموالها الا اذا أذنت له بذلك أو وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها ، وفى هذه الحالة يجوز أن تلغى وكالته وتوكل غيره ان شاءت .

أما ايثار الرجل بضعف نصيب المراة فى الميراث ، فمرده الى التبعة التى يضطلع بها الرجل فى الحياة ، فالرجل يحتمل نفقات الأسرة من زوجة ، وابناء وأقارب ، فمن حقه أن يكون له مثل حظ الأنثيين لهذا السبب وحده . فى حين أنها مكفولة الرزق اذا تزوجت بما يعولها الرجل ، ولها اذا ما طلقت نفقة العدة على نحو ما وجبت لها فى حياتها الزوجية وأوجب لها « المتعة » . وهى ما يبذله الرجل بعد طلاقها غير نفقة العدة ، مما تحفظ به نفسها وكيانها :

« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » (١) .

فالمسألة هنا مسألة تفاوت فى التبعة اقتضى تفاوتا فى الارث . وأما أن الرجل قوام عليها :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (٢) .

قال الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسير المنار :

« المراد بالقيام هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بارادته واختياره ، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهورا مسلوب الارادة لا يعمل عملا الا ما يوجهه اليه رئيسه ، فان كون الشخص قيما على آخر هو عبارة عن ارشاده ، والمراقبة عليه فى تنفيذ ما يرشده اليه ــ أى ملاحظته فى أعماله وتربيته » (٣) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٤١ .

(٢) سورة البقرة : ٣٤ .

(٣) تفسير المنار : جـ ٥ ، ص ٦٨ .

وقد يبدو أن هناك تفضيلا آخر فى مسألة الشهادة :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله »

الى أن قال :

« واستشهدوا شاهدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » (١) .

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة ، أو شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضى ، فان أقصى ما يطلبه القضاء هو « البينة » . وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة فى الشرع أعم من الشهادة وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره ، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم . وفى ذلك يحكم القاضى بالقرائن القطعية ، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن اليها .

واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذى يتبع نقص انسانيتها ، ويكون أثرا له ، وانما هو لأن المرأة — كما قال الأستاذ الامام محمد عبده — « ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها فانها فيها أقوى ذاكرة من الرجل . ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها » .

وللناس جميعا كراماتهم التى لا يجوز أن تهدر بلمز ، ولا أن يسخر منها أحد :

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٣ .

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١) .

وللناس جميعا حرماتهم التى يجب أن تصان :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم ، والله بما تعملون عليم » (٢) .

ويسوى الاسلام فى الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين، فيقرر أن الذميين فى بلد اسلامى أو فى بلد خاضع المسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق عامة وعليهم ما على المسلمين ، وينبغى على الدولة أن تقاتل عنهم كما تقاتل عن جميع رعاياها .

قال ابن حزم فى مراتب الاجماع : « ان من كان فى الذمة ، وجاء أهل الحرب الى بلادنا ، يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك ، صونا لمن هو فى ذمة الله — تعالى — وذمة رسوله — صلى الله عليه وسلم — فان تسليمه دون ذلك اهمال لعقد الذمة » .

وتطبق على الذميين القوانين القضائية التى تطبق على المسلمين الا فيما تعلق منها بشئون الدين فتحترم فيه عقائدهم وشعائرهم ، فلا توقع عليهم الحدود الاسلامية فيما لا يحرمونه ولا يعاقبون أنفسهم عليه .

والاعتداء على الذميين فى نكره وفحشه، كالاعتداء على المسلمين وله سوء الجزاء فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الحجرات : ١١ .
(٢) سورة النور : ٢٧ — ٢٨ .

ولقد تكررت الدعوة الى العناية بهم ، واحترام حقوقهم ، فقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم — فى رعايتهم ، والابتعـاد عن ايذائهم ، فقال :

« من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة » .

« من آذى ذميا فانا خصمه يوم القيـامة ، ومن خاصمته خصمته » .

« من ظلم معاهدا ، او انتقصه ، او كلفه فوق طاقته ، او اخذ منه شيئا ، بغير طيب نفس ، فانا حجيجه يوم القيامة » .

ولقد جرى الخلفاء الراشدون ، وحكام المسلمين ، فى مختلف العصور على الدعوة للعناية بهم ، والمحافظة على اموالهم ، وانفسهم ومعتقداتهم .

يروى : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مر بباب قوم ، وعليه سائل ، يسأل ، وهو شيخ ضرير البصر ، فقال له عمر : من أى أهل الكتاب أنت؟ قال : يهودى . فقال : ما الذى الجأك الى ما أرى ؟ فقال : اسأل الجزية ، والحاجة ، والسن . فأخذ عمر بيده ، الى منزله فرضخ له بشىء من المال (اى اعطاه ما يسد حاجته) ، ثم ارسل الى خازن بيت المال وطلب اليه أن يجرى عليه رزقا مستمرا ، من بيت مال المسلمين ، وقال له ، انظر الى هذا .. فوالله ما انصفنا ان اكلنا شبيبته ، ثم نخذله ، عند الهرم :

((انما الصدقات للفقراء والمساكين(1))) .

والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين ، من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية ، وعن ضربائه .

---

(1) سورة النور : ٦٥ .

وجاء فى كتاب الخراج ، لأبى يوسف ، موجها القول الى الخليفة هرون الرشيد :

« وقد ينبغى يا أمير المؤمنين — أبرك الله — أن تتقدم بالرفق ، بأهل ذمة نبيك ، وابن عمك محمد — صلى الله عليه وسلم — والتفقد لأحوالهم ، حتى لا يظلموا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم ، الا بحق يجب عليهم » .

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ظلم معاهدا ، أو كلفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه ، يوم القيامة » .

التـــكافل الاجتماعى

ان أفراد الانسان ليست وحدات يستقل بعضها عن بعض ، وانما هى بطبيعة ما خلقت عليه ، وما تحتاجه فى الحيــاة وحدات تتبادل المنافع ، وتتعاون على المصالح ، وبهذا التعاون الضرورى للحياة يتحقق المجتمع الانسانى .

وقد أدرك العالم فى عصره الحديث هذه الحقيقة ، وبدا ينادى « بالتكافل الاجتماعى » بين أفراد المجتمع ، ولكنه قصر مفهــوم التكافل الاجتماعى على تحقيق المطالب المعاشــية للفئات المحرومة من الغذاء والكساء والسكن وما أشبهها .

ولكن الاسلام لم يقف فيما يحقق المجتمع الانسانى عند هذا الحد الطبيعى الذى كثيرا ما تطغى عليــــه العــــوامل النفسية والشخصية ، فتخرجه عن حد الاعتدال اللازم للهدوء والســعادة والأمن والاستقرار ، بيــد انه شــد ازر الطبيعة الاجتمــاعية بما يقويها ويقيها من الانحراف والانحلال .

فربط بين أفراد الانسان برباط قلبى يوحد بينهم فى الاتجاه والهدف ، ويجعل منهم وحدة قوية متماسكة ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، سداها المحبة ولحمتها الصالح العام ، وهدفها الســعادة فى الدنيا والآخرة .

قرر الاسلام الأخوة بين المسلمين ، قال تعالى

« انما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقــوا الله لعــلكم ترحمون » (١) .

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

وهذه الأخوة الدينية اعتبرها الاسلام ، كأساس من أسس دولتهم وجماعتهم ، وقد امتن الله بها على رسوله وعلى المؤمنين ، فذكرهم بنعمة التآلف بعد التقاطع :

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقـذكم منها » .

ومن مقتضيات هذه الأخوة ، التكافل الاجتماعى بين المسلمين والتكافل الاجتماعى هو ايمان الأفراد بمسئولية بعضهم عن بعض ، هو ايمانهم بأن كل واحد منهم ، حامل لتبعـات أخيه ، ومحمول بتبعاته على أخيه ، فاذا ما أحسن ، كان احسانه لنفسه ولأخيه ، واذا ما أساء ، كانت اساءته على نفسه وعلى أخيه » (١) .

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيـامة عما كانوا يفترون » (٢) .

وجاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى ودخـل النقص عليهم فى دينهم نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ولم يمنعهم العصيان عن مخالطتهم فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ففرق كلمتهم وشتت شملهم » .

ثم قـرأ :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٣) .

---

(١) الاستاذ الشيخ محمود شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع . ص ٨١ .
(٢) سورة العنكبوت : ١٣ .
(٣) سورة المائدة : ٧٨ — ٧٩ .

ويجعل القرآن خيرية الأمة وصلاحها ونجاحها منوطا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهـون عن المنكر وتؤمنون بالله)) (١) .

ويستهدف الاسلام قيام مجتمع اسلامى قوى ، يشد بعضه بعضـا ، متحد الغـايات النبيلة ، التى تحقق له سعادته وقوته وكرامته ، ولذلك فهو يحذر من موالاة الأعداء ، لمـا فى ذلك من تعريض مصلحة المجتمع وكيانه للخطر .

ويحذر القرآن المسلمين من الفرقة وايجاب الولاء بينهم على كل حال ، ويوجب الاعتصام بالوحدة والصلح فيما بينهم،والاصلاح بين من يقع بينهم نزاع وقتال ، مما له صلة وثيقة بحفظ كيـان المجتمع موحدا قويا عزيزا .

وهناك تكافل بين الفرد وأسرته .

قال الله تعالى :

((وبالوالدين احسـانا ، اما يبلغن عنـدك الكبر أحدهمـا أو كلاهما ، فلا تقل لهمـا أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريمـا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا)) (٢) .

والأمة الاسلامية مسئولة عن الفقراء ، والمساكين والجيـاع والمعسرين والمحرومين ، وقد أوجب القرآن الاهتمـام بأمر هؤلاء وأولئك بالمساعدة المادية والأدبية والأخذ بيدهم ، فضـلا عن أنه واجب لذاته بغض النظر عن أى اعتبار فانه من شأنه أن يشـعرهم بقيمة الحياة والحق والتضامن ، وأن يجعلهم أعضاء نافعين فى المجتمع .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٢) سورة الاسراء : ٢٣ — ٢٤ .

كما ان فى هـذا مظهـر من مظـاهر التعـاطف والتراحم الذى لا تتوطد الوحدة الاجتماعية الا به .

وقد حث القـرآن على التصدق والانفـاق على الفقـراء والمساكين .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »(١) .

يقول الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسـيره لمعنى الفقـرة القرآنية :

« وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين » . ما يلى :

« هذا الايتـاء غير ايتـاء الزكاة ، وهو ركن من أركان البر ، وواجب الزكاة ، وذلك حيث تعرض الحـاجة الى البـذل فى غير أوقات الزكاة :

— بأن يرى الواحد مضطرا بعد اداء الزكاة أو قبل اتمام الحول .

وهو لا يشترط فيه نصاب معين — بل هو حسب الاستطاعة — فاذا كان لا يملك الا رغيفا . ورأى مضطرا اليه فى حالة استغنائه عنه — بأن لم يكن محتاجا اليه لنفسه أو لمن تجب عليه نفقته — وجب عليه بذله .

وليس المضطر وحده هو الذى له الحق فى ذلك ، بل أمر الله تعالى المؤمن أن يعطى من غير الزكاة ذوى القربى — وهم أحق الناس

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

بالبر والصلة ، فان الانسان اذا احتاج وفى أقاربه غنى فان نفسه تتوجه اليهم بعاطفة الرحم .

ومن المغروز فى الفطرة أن الانسان يألم لفاقة ذوى رحمه ، وعدمهم ، أشد مما يألم لفاقة غيرهم ، فانه يهون بهوانهم ويعتز بعزتهم .

فمن قطع الرحم ، ورضى بأن ينعم وذوو قرباه بائسون ، فهو برىء من الفطرة والدين ، بعيد من الخير والبر .

ومن كان أقرب رحما كان حقه آكد ، وصلته أفضل » (١) .

والقرآن المجيد حين يؤكد هذه العلاقة لا يرضى أبدا أن تمتد آثارها الى ما يفقد العدالة سلطانها أو قوتها ، ومن هنا راح يؤكد معنى العدالة ، وينص على أنها يجب الا تهتز فى يد القائم عليها ، ولو لذوى القربى ، أو صاحب نفوذ أو سلطان .

يقول الله تعالى :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

ويقول :

« ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى » .

والأمة مسؤولة عن حماية الضعفاء فيها ورعاية مصالحهم ، وعليها أن تقاتل عند الضرورة لحمايتهم :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (٢) .

وعليها أن تحافظ على أموالهم حتى يرشدوا :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ، ولا تاكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن

---

(١) تفسير المنار : جـ ٢ ، ص ١١٥ ، ١١٦ .
(٢) سورة النساء : ٧٥ .

كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فلياكل بالمعـــروف . فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » (١) .

ويعتبر الاسلام المجتمع مسؤولا عن صيانة الأخلاق العـــامة . وبذلك وجب أن ينكر المجتمع على مرتكبى المنكرات الخلقية وغيرها ولا يعتبر الاسلام ذلك تدخلا منه فى الحريات الشخصية لأن الفساد والمنكر يأتى على بنيان المجتمع من القواعد .

وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا للتكافل الأخلاقى فى المجتمع ، ذلك التكافل الذى يأخذ على أيدى العـــابثين والمخربين بقوله :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم (منعوهم من خرق السفينة) نجوا ونجوا جميعا » .

ان الاسلام حين يقرر التكافل الاجتماعى لا يجعله قاصرا على المطالب المادية فحسب ، بل يجعله شاملا لكل نواحى الحياة المـــادية والمعنوية معا .

---

(١) سورة النساء : ٦ .

العدالة الاجتماعية فى الاسلام

يستهدف الاسلام تحقيق العدالة الاجتماعية ، وهو لا يقصرها على الماديات فحسب ، ولا أن يكون التشريع وحده هو الذى يكفلها ، انما أراد أن تكون عدالة اجتماعية شاملة ترتكز على دعامتين :

الضمير الانسانى والتشريع .

ومن هنا ، كانت عناية الاسلام بالخلق ، عنـاية كبيرة ، وقـد وصلت هذه العناية عند الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن جعل الخلق ، متعلق برسالته :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ان اصلاح الباطن أساس لكل اصلاح ظاهرى ، ولا بقاء لاصلاح خارجى الا اذا تركز وكان نتيجة وأثرا للاصلاح الباطنى ، والاخلاق الفاضلة ، هى الكفيلة بالاصلاح الباطنى ، وهى الشجرة التى ثبت أصلها وبسق فرعها ، وطاب ثمرها ، وآتت أكلها كل حين باذن ربها وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » من أقوى العبارات المأثورة فى القضية الطبيعية ، قضـية الضمير ، وهى « صلاح الظاهر نتيجة لصلاح الباطن » .

والاسلام لم يترك هذا الضمير لذاته ، بل أقام عليه رقيبا من خشية الله ، وصور له رقابة الله فى صور رائعة .

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » (١) .

ولقد بشره وأنذره وجعل كل عمل من أعماله محسوبا عليه فى الدنيا والآخرة لا مناص من عاقبته ، ولا مفر من جزائه .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢) .

اعتمد الاسلام فى ارساء قواعد العدالة الاجتماعية على الضمير الانسانى الذى سما به الى معاريج السموات ، وعلى التشريع الذى جاءت به شريعته ، وبهذه الوسيلة اقام مجتمعا ترفرف عليه الرفاهية وتسوده المحبة والكفاية والعدل .

وسنعرض هنا نموذجا من تلك الطريقة فى التشريع والتوجيه ، ونختار موضوع الزكاة والصدقة .

الزكاة : هى الركن الثالث فى الاسلام ، وهو حق يؤخذ ، وليس هبة تعطى ، وتشرف الدولة على استيفائها وتوزيعها كشأن الضرائب التى تأخذها الدولة من المواطنين ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٣) .

ونص الامام الشافعى على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن ادائه ، وفى هذا اخراج الزكاة من أن تكون مظنة للذلة والمهانة للفقير كما يتوهم بعض الناس (٤) .

---

(١) سورة ق : ١٦ ـ ١٨ .

(٢) سورة الانبياء : ٤٧ .

(٣) سورة الداريات : ١٩ .

(٤) د. مصطفى السباعى : اشتراكية الاسلام ، ص ٢٢٣ .

ويقول ابن حزم فى كتاب « المحلى » : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم » .

ويحدد ابن حزم المستوى الذى يجب أن تحققه الدولة للفقراء والذى يحق لها من أجله أن تتخطى حدود الزكاة المفروضة فتفرض الضرائب اللازمة وتجبيها لتنفقها فى هذا السبيل ، فيقول :

« يقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للصيف والشتاء بمثل ذلك وبمسكن يقيهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

ان الزكاة واجبة على الغنى فيما يفضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم ، من ماله النقدى ، وقيم أعيانه التجارية ومواشيه ، وثمار زرعه ، بنسب معروفة عند المسلمين ، يقوم مجموعها بحاجة الفقير والمصالح ولا ترهق أربابها . وقد أحست الدولة الاسلامية بواجبها فى هذا الصدد منذ اللحظة الأولى فقد قاتل أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة كما قاتل المرتدين ، وظلت الدولة منذ ذلك الحين تقوم بجباية الزكاة وتوزيعها ، ولم تترك الدولة جباية الزكاة فى مصر الا منذ عهد السلطان قلاوون أحد السلاطين المماليك ، فقد شكا اليه التجار من عبث الجباة فأمر بالغاء جبايتها .

وقد ادركت بعض الدول الغربية أثر الزكاة فى علاج مشكلة الفقر فى المجتمع والقضاء على آثاره السيئة فى حياة النـاس ، فاستلهمت من التشريع الاسلامى المبادىء الأساسية لفريضة الزكاة وصاغتها فى قوانين .

ففى سنة ١٦٠١ أصدرت الملكة اليزابيث ملكة انجلترا « قانون الفقراء » ، ويقوم هذا القانون على فكرة الاعتراف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وهذا فى الواقع هو الأساس النظرى لهذا القانون الاجتماعى الخطير (١) .

---

(١) د. ابراهيم اللبان : حق الفقراء فى أموال الاغنياء .
« بحث مقدم لمؤتمر علماء المسلمين بالقاهرة ١٩٧١ » .

ويبدو التشابه فى أتم صـــوره حينما يتصدى القانون لبيـــان الأصناف التى تستحق المعونة فانه اذ ذاك يقسم المستحقين الى سبع طوائف :

١ ـ الأطفال الذين يعجز آباؤهم عن القيام بشئون حياتهم .

٢ ـ الرجال الذين ليس لهم مورد رزق من صـــناعة أو تجارة أو سواها .

٣ ـ العاجز .

٤ ـ الأعمى .

٥ ـ الأعرج .

٦ ـ الهــــرم .

٧ ـ السجين سجنا مؤبدا .

وقد نفذ هذا القانون منذ صدوره ولكنه خضع لتعـــديلات متعددة ويكفى الشعور بقيمة هذا القانون وأثره فى حياة المجتمع الانجليزى أن نشـــير الى مقدار الجبـــاية وعدد المنتفعين فى بعض السنين .

ففى سنة ١٩٢٥ وصل عدد الذين ينالون المعونة طبقا لهـــذا القانون ١٤٧ر٠٦ر٩ر١ أى نحو مليونين وهو ما يعـــادل واحدا من كل ٢٤ من السكان .

وقد كانت الجباية فى البداية محدودة ولكنها لم تلبث أن نمت حتى وصلت فى سنة ١٨١٨ الى ١٠٨ر٨٧٠ر٧ ملايين ولم يكن عدد السكان فى انجلترا فى ذلك الحين يزيد عن أحد عشر مليونا .

واقتبست الولايات المتحدة الأمريكية من انجلترا قانون الفقراء المذكور فأصبح قانونا للبلاد تنفذه الولايات المختلفة . وقد حصلت ولاية بنسلفانيا باسم هذا القانون فى سنة ١٩٢٥ على أكثر من

۰۰۰ر۰۰۰ر۱۰۰ ريال أمريكى وزعتهـا على الفقراء والمساكين من أهلها !

ان فريضة الزكاة قد ضمنت للفقير من مال الغنى موردا كافيـا ومضمونا .

والقرآن الكريم يذكر مقومات الايمان ، ويكون منها بعد وجل القلوب من ذكر الله سـبحانه وتعـالى ، وزيادة الايمـان بآياته : « الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (١) .

أما أساليب الترغيب فى الانفاق ، فحسبنا أن نقرأ هذه الآيات الواردة فى سورة البقرة :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » .

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

ويعلق الأسـتاذ الشيخ محمـد عبده على طلب القرآن الكريم الاقتراض لله جل شأنه من الناس فيقول :

« معلوم أن الله تعالى غنى عن العـالمين فلا يحتاج الى شىء لذاته ، ولا هو عائل لجماعة معينين فيقترض لهم ، فلا بد لهـذا التعبير بالاقراض من وجه صحيح — أى غير ما يعطيـه الأسلوب من الترغيب ، فما هو هذا الوجه ؟

ان الفقراء عيال الله على الأغنياء — لأن الحاجات التى تعرض لهم يقضيها الأغنياء .

ومعنى كونهم عيال الله أن ما أصـابهم من الفاقة والعـوز انما كان بالجـرى على سنن الله فى أسـباب الفقر . وللفقر أسـباب كثيرة .

---

(١) سورة الانفال : ٣ .

والأغنياء متمكنون من ازالة بعض هــذه الأسباب أو تدارك ضررها ، واضعاف اثرها كازالة البطالة ، باحداث أعمال ومصالح للفقراء ، وازالة الجهل بالانفاق على التربية والتعليم .

واذا كان فقر الفقير انما هو بالجرى على سنة من سنن الله — فازالة سبب فقره ، أو مساعدته عليه ، أو فيــه ، انما يجرى على سنة من سنن الله تعالى .

فالانفاق لاحياء سنة الله ومســــاعدة من ينتسبون الى الله تعالى على أنهم عياله — اذ لا غنى لهم بكسبـــهم ولا حول لهم ولا قوة — ينزل منزلة الاقراض له تعالى .

ويراد بالانفاق فى هذه الآية الانفاق فى المصالح العامة (١) .

وكثير من آيات القرآن الكريم تدل على أن الاسلام ينظر الى التمليك على أنه مجرد وظيفة يقوم صاحبها بانفاق المــال على مستحقيه ، وينظر الى المالك على أنه مستخلف على ثروته من قبل الله لانفاقها فى سبيله .

وفى هذا يقول الله تعالى :

— ((آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير (٢)))

ويفسر الزمخشرى هذه الآية بقوله :

((يعنى أن الأموال التى فى أيديكم انما هى أموال الله بخلقه وانشائه لها وانما مولكم اياها وخولكم الاســتمتاع بهـا وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن

---

(١) تفسير المنار : ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) سورة الحديد : ٧ .

عليكم الانفاق كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره اذا اذن فيه » .

يعترف الاسلام بالملكية الفردية ويقرها ، وليس من شك فى ان تقرير الملكية الفردية والاعتراف بها يحقق العدالة بين الجهد والجزاء ، فضلا عن مسايرته للفطرة واتفاقه مع الميول الأصيلة فى النفس البشرية ، تلك الميول التى يحسب الاسلام حسابها فى اقامة نظام المجتمع ، وفى الوقت نفسه يتفق مع مصلحة الأمة باغراء الفرد على بذل أقصى جهد فى استطاعته لتنمية الحياة .

ولكن الاسلام لا يترك حق الملكية الفردية مطلقا ، بل أنه يعترف به ويقرره ، ويقرر الى جانبه مبادىء أخرى تكاد تحيله حقا نظريا

يقرر الاسلام أن المال ، ملك لله الذى لا مالك لشىء سواه ، وجعل المالكين مستخلفين فى حفظه وتنميته وانفاقه .

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه (١) »

وأضافه مرة أخرى الى الأمة ، وجعله كله بتلك الاضافة ملكا لها .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل (٢) »

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما (٣) »

فأرشد بذلك الى أن الاعتداء عليها ، أو التصرف السىء فيها ، هو اعتداء أو تصرف سىء واقع على الجميع . وذلك نتيجة لما قرره الاسلام من ان المال أداة لمصلحة المجتمع كله ، به توجد الصناعة وتحيى الأرض ، وبه تكون التجارة ثم به يساهم أصحابه فى سد حاجة المحتاجين واقامة المشروعات العامة النافعة ان لم

---

(١) سورة الحديد : ٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٨ .

(٣) سورة النساء : ٥ .

يكن بدافع التعاون والتراحم ، فبحكم الغرض الذى أوجبه الله تعالى فى أموال الأغنيـاء الفقراء ، فى سبيل الله ، وبحكم الضرائب التى يضعها ولى الأمر حسب تقدير ما تحتاجه البلاد من مشروعات الاصلاح والتقدم .

وحيث يقر الاسلام دوام الملكية لا يقره الا فى الحدود التى وضعها للميراث ، ونظام الميراث فى الاسلام من أحسن النظم لتوزيع الثروات بين النـاس ، وذلك لأنه يقسم التركة على عدد كبير من أقرباء المتوفى ، فيوسع بذلك نطاق الانتفاع بها ويحول دون تجمع ثروات هائلة فى يد حفنة محدودة من الناس ، وبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروات الكبيرة التى قد تتجمع فى يد بعض الأفراد أن تتوزع ملكيتها بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الناس وتتحول الى ملكيات صغيرة .

وهذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق بين طبقـات المجتمع وتقريبها بعضها من بعض ، وتحقيق العدالة الاجتماعية فى أبهى صورها ، ولحرص الاسلام على تحقيق هذه الأهداف حظر على الشخص أن يوصى لأحد ورثته بما يعطيه أكثر من حقه الشرعى ، كما حظر عليه أن يوصى لغير ورثتـه بأكثر من ثلث التركة ، ومن أجل ذلك أيضـا حرمت معظم المذاهب الاسـلامية نظـام الوقف الأهلى وهو أن يحبس المالك غلة ملكه بعد وفاته على فئـة محدودة من أقربائه أو من غيرهم بمقادير وشروط يعنيهـا وفق ما يشـاؤه وتشاء له أهواؤه ، لما فى ذلك من حبس للثروة عن التـداول ومن اخلال بقواعد الميراث (١).

---

(١) د . على عبد الواحد وافى وزميله : قصة الملكية فى العالم ص ١٤٨ .

ويكره الاسلام ان يحبس المال فى أيدى فئة خاصة من الناس . يقول الله تعالى فى سورة الحشر :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .

وقد نزلت سورة الحشر فى بنى النضير (١) ، وهم رهط من اليهود بقرب المدينة ، وكانوا قد صالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الا يكونوا عليه ولا له . فلما هزم المسلمون فى موقعة احد أظهروا العداوة له ، ونقضوا العهد ، وحالفوا قريشا على ان يكونوا يدا واحدة عليه صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم الرسول احدى وعشرين ليلة ، ولما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، طلبوا الصلح ، فأبى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الا الجلاء ، فجلوا الى خيبر والحيرة وأريحا ، واذرعات بالشام . وقد نزلت الآية الكريمة حين طلب الصحابة من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم بينهم أموال بنى النضير قسمة الغنائم فبين الله تعالى انها فىء لا غنيمة ، اذ انهم لم يقطعوا لها شقة ، ولم يلقوا فيها مشقة ، ولم يلتحموا فيها بقتال شديد .

واحتبس صلى الله عليه وسلم من أموال بنى النضير شيئا لنوائبه ، وقسم أكثرها بين فقراء المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة نفر أعطاهم لفقرهم . وقال للانصار :

---

(١) الاستاذ محمد حسنين مخلوف : صفوة البيان لمعانى القرآن : ج ٢ ، ص ٤١٣ .

— « اذا شئتم قسمت أموال بنى النضير بينكم وبينهم واقمتم على مواساتهم فى ثمـارکم . وان شئتم أعطيتها للمهاجرين دونكم وقطعتم عنهم ما كنتم تقطعونه من ثماركم » .

فقـالوا :

— « بل تعطيهم دوننا ونقيم على مواساتهم » .

فأعطى المهاجرين دونهم ، فاستغنى القوم جميعا ، المهاجرون بما أخذوا ، والأنصار بما رجع اليهم من ثمارهم .

وتضخم المـال فى أيدى حفنة صغيرة من الناس ، يؤدى الى البطالة والترف ، كما يؤدى الى الاكتناز ، لأنه قائم على غير سبب سليم ، مما يخلق فى نفوس أصحابه شيئا من عدم الثقة والقلق ، ويكون علاجه فى نظر هؤلاء هو حبســه عن التـداول كوسيلة من وسائل الأمان .

والترف آفة تؤدى الى الانحلال ، ثم الى العصيان ، والضياع . والكنز لا يقره الاسلام ، لأنه يؤدى الى حرمان المجتمع من طاقات لازمة للانتاج .

يقول الله تعالى فى الترف والمترفين ، مما يكشف ســوءات الترف ويحذر من مخاطره :

— **« واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين (١) »**

وفى سوء العاقبة التى تنزل بالمترفين فى الدنيا ، يقول :

— **« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشـأنا بعدها قوما آخرين ، فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون ، لا تركضـوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسالون ، قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيـدا خامدين (٢) »**

---

(١) سورة الاسراء : ١٦ .

(٢) سورة الانبياء : ١١ — ١٥ .

وفى سوء المصير الذى اعد لهم فى الآخرة يقول :

ـ ((واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين (١))) .

وفى الكنز يقول :

ـ ((والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٢))) .

وهناك نوع من الأموال التى لا يجوز احتجازها للافراد ، عدد الرسول صلى الله عليه وسلم منها ثلاثة : الماء والكلأ والنار « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار »

بوصفها مواد مرافق عامة ضرورية للمجتمع فى البيئة العربية فالانتفاع بها للجماعة كلها ، والضروريات لحياة المجتمع تختلف فى بيئة عن بيئة ، وفى عصر عن عصر ، والقياس ، وهو احد اصول التشريع الاسلامى ـ يتسع لغيرها عند التطبيق لما هو فى حكمها .

---

(١) سورة الواقعة : ٤١ ـ ٤٥ .

(٢) سورة التوبة : ٣٤ ـ ٣٥ .

نظام الحكم فى الاسلام

يقرر القرآن الكريم : ان الله عز وجل هو الخالق الكون وما فيه من كائنات ، فهو رب العالمين وأنه مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فهو السيد المطلق وحده ، والناس كلهم عبيده ، وهم سواء فى درجة العبودية لله ، كما أنهم سواء فى نسبتهم الى الخالق المالك ، لا يتفاضلون الا بمبلغ ايمانهم بالله ، واستمساكهم بدينه ، ومدى ما يقدمونه من خدمات لصالح المسلمين وقد جعل القرآن الحكم أمانة يجب أن تؤدى على الوجه الأكمل وخدمة للمسلمين .

وتقوم قواعد النظام الاسلامى على أسس العدل من الحكام ، والطاعة من المحكومين ، والشورى بين الحاكم والأمة .

١ ـ العدل من الحكام :

ورد الأمر بالعدل صريحا فى القرآن الكريم ، وقد جعله الله تعالى غاية الحكم :

((ان الله يامركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا (١)))

يقول الطبرى (٢) فى تفسير هذه الآية : واولى الأقوال بالصواب ، فى ذلك عندى ، قول من قال هو خطاب من الله الى

---

(١) سورة النساء : ٥٨ .

(٢) التفسير الكبير : جـ ٥ ، ص ٨٦ .

ولاة أمور المسلمين ، بأداء الأمانة الى من ولوا أمره ، فى فيئهم وحقوقهم ، وما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم فى القضية ، والقسم بينهم بالسوية ، ووضح معنى العدل بعد ذلك فقال : ذلك حكم الله الذى أنزله فى كتابه وبينه على لسان رسوله ، لا تعدوا ذلك فتجوروا عليهم .

والعدل واجب حتى للاعداء ، وقد جاء النص على ذلك صريحا فى الآية الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (١) » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

ــ « لا تزال هذه الأمة بخير ما اذا قالت صدقت ، واذا حكمت عدلت ، واذا استرحمت رحمت »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

ــ « أحب الخلق الى الله أمام عادل ، وابغضهم اليه امام جائر » .

ان الدولة الاسلامية ليست من نوع الحكومات المستبدة ، التى لا يتقيد حاكمها بقانون أو نظام ، أو مشورة ، كما انها ليست دولة دينية ، تستمد سلطانها من الله ، بل تستمد سلطانها من الأمة ، ولو كانت دينية (بتوقراطية) ، لما فرض الله الشورى ، وألزم الدولة بها ، ولكان لرئيسها أن يفعل ما يشاء ، ما دام يستمد سلطانه من الله ، مع أن رئيس الدولة الاسلامية وكل حاكم مسلم ، مقيد بالقرآن والسنة ، أو بما تسفر عنه الشورى ان لم يكن هناك نص . والدولة الاسلامية ، وان كانت تشبه الحكومات النيابية الديمقراطية ، فى الأخذ بمبدأ الشورى ، الا أن هذه الحكومات

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

تخضـــع لقوانين وانظمة ، يضـــعها البشر ، وهى قابلة للتبــديل ، والتعديل ، والالغاء ، اذا ما قضت أهواؤهم ورغائبهم ذلك .

اما أحكام القرآن ، فهى دائمة الى الأبد ، لا تماشى أهواء الحكام أو المحكومين ، وانما تعدل بينهما ، وتوفى كلا حقه ، فى حدود العدل مع حفظ مصلحة الجماعة .

ومن العدل أن يصطفى الحاكم للاعمال أحسن الناس أخلاقا ، وأقومهم دينا ، وأفضلهم رأيا ، ليقوم بواجب الأمانة الملقى عــلى عاتقه .

قال صلى الله عليه وسلم : « من استعمل رجلا على عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

وعن يزيد بن أبى سفيان ، قال : قال لى أبو بكر الصديق ، حين بعثنى الى الشام :

« يا يزيد ان لك قرابة ، عسيت أن تؤثرهم بالامارة ، وذلك اكثر ما أخاف عليك ، بعد أن قال رسول الله : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فأمر عليهم أحدا محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، حتى يدخل جهنم » .

لقد أرشدت السنة النبوية الى أن اسناد المناصب لغيرأصحاب الكفاية ، هو مظهر من مظاهر الفساد .

قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » .

قيل : وكيف اضاعتها ؟

قال : اذا وسد الأمر لغير أهله ، فانتظر الساعة .

والدولة تراقب الولاة ، والحكام ، فى الأقاليم : لتكون تصرفاتهم تحت الرقابة ، حتى تطمئن الدولة الى تحقيق مصالح الشعب ، وحتى تكافىء الصالح ، وتضرب على يد الظالم .

ولقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ أيما عامل لى ، ظلم أحدا ، وبلغتنى مظلمتـــه ، فلم أغيرها ، فأنا ظلمتـــه . . أرأيتم اذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ؟ قالوا نعم . قال : لا حتى أنظر عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟

وقد حدد الامام على بن أبى طالب مهمة الحاكم فى الرســالة التى بعث بها الى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر بأنها : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها وأمره بتقوى الله ، وايثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه ، من فرائضه ، وسننه ، التى لا يسعد أحد الا باتباعهـــا ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويدهولسانه فانه ، جل اسمه ، قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر نفســه من الشهوات ويزعها عند الجمحات (١) فان النفس أمارة بالسوء ، الا ما رحم الله .

ويفصل الامام ما أجمل ، فيبدأ برسم الخطوط الرئيســـية لشخصية الحاكم المسلم ، وسلوكه وصلاته بالناس يقول الامام لواليه :

« املك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فان الشحبالنفس الانصاف منها فيما أحبت أو كرهت . وأشــعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صــنفان : أما أخ لك فى الدين ، أو نظـــير لك فى الخلق ، فأعطهم من عفــوك وصفحك مثــل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك ،

---

(١) يزعها : أى يكفها عن مطامعها اذا جمحت عليه فلا تنقاد الا لقائد العقل الصحيح والشرع الصريح .

والله فوق من ولاك ! وقــد اســتكفاك أمرهم (١) وابتــلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله (٢) فانه لا يد لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته .

ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن ــ اى لا تفــرح ــ بعقوبة ، ولا تسرعن الى بادرة وجدت منهــا مندوحة . ولا تقول انى مؤمر ــ أى مســلط ــ فأطاع فان ذلك ادغال ــ افســاد ــ فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير .

اياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال .

انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك .

وليكن أحب الأمور اليك أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية ، وانما عماد الدين . وجماع المسلمين ، والعدة للاعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم

وليكن ابعد رعيتك منك وأشنأهم (٣) عندك أطلبهم لمعــائب الناس ، فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها . واطلقمن الناس عقدة كل حقد ، ولا تعجلن الى تصديق ساع ، فان الساعى غاش وان تشبه بالناصحين .

ولا تدخن فى مشــورتك بخيلا يعــدل بك عن الفضــل (٤) ، ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك

---

(١) استكفاك : طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم .

(٢) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم والجور و « لا بد لك بنقمتــه » اى ليس لك يد تدفع نقمته ــ اى لا طاقة لك بها .

(٣) أشتاهم : ابغضهم .

(٤) الفضل هنا : الاحسان بالبذل .

الشره بالجور ، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى (١) يجمعها سوء الظن بالله !

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة . وليكن آثر أعوانك عندك أقولهم بمر الحق لك ، والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على ألا يطروك (٢) ، ولا يبجحوك (٣) بباطل لم تفعله ، فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة . ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء ، واعلم انه ليس شىء بأدعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدر هذه الأمة ، ولا تحدثن سنة تضر بشىء من ماضى تلك السنة ، واكثر مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك .

بهذا يرسم الامام على بن أبى طالب صورة واضحة القسمات للحاكم الصالح فى شخصه وما يجب عليه أن يكون موقفه من الشعب ، والصفات التى ينبغى أن يتطلبها فى وزرائه ومستشاريه .

ثم يوضح الامام بعد ذلك الفئات التى يتكون منها المجتمع ، وحق كل منها من عناية الحاكم ورعايته فيقول :

« واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة

---

(١) غرائز طباع متفرقة تجتمع فى سوء الظن بكرم الله وفضله .

(٢) رضهم : اى عودهم على أن لا يطروك — اى يزيدوا فى مدحك .

(٣) ولا يبجحوك — اى يفرحوك بنسبة عمل عظيم اليك ولم تكن فعلته .

والخاصة (١) ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكل قد سمى الله له سهمه (٢) ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه — صلى الله عليه وآله وسلم — عهدا منه عندنا محفوظا .

ويفصل الامام على كرم الله وجهه ما أجمل فى هذا التقسيم ، فيوضح الدور الذى تقوم به كل فئة من هذه الفئات فى حياة المجتمع، وما به صلاحها ، ويبين المزالق التى يمكن أن تنحرف اليها أى واحدة منها اذا هضمت حقوقها ، أو أسيئت معالجة شئونها ، أو اختير لقيادتها من لا يصلح لها ، أو شعرت باختلال ميزان العدالة فيها .

والامام فى تصويره لأحوال هذه الفئات يصدر عن عقل راجح ، وبصيرة نافذة فى أحوال النفوس ، وفى علاقات الجماعات ، وتعرضها للصلاح والفساد ، فهو فى توجيهه للوالى فى أمر القضاة يقول :

« اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه (٣) الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر (٤) من الفىء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على

---

(١) كتاب : جمع كاتب . والكتبة منهم عاملون للعامة كالمحاسبين والمحررين فى المعتاد لشئون العامة كالخراج والمظالم ، ومنهم مختصون بالمحاكم يفضى اليهم بأسراره ، ويوليهم النظر فيما يكتب لأوليائه وأعدائه ، وما يقرر فى شئون حربه وسلمه مثلا .

(٢) سهمه : نصيبه من الحق .

(٣) أمحكه : جعله محكان ، أى عسر الخلق ، أو أغضبه .

(٤) حصر : ضاق صدره ، أى لا يضيق صدره من الرجوع الى الحق .

طمع (١) ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه وأوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه (٢) اطراء ولا يستميله اغراء . ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له فى البذل (٣) ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته الى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك (٤) ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك .

فاذا ما جاء الى شئون التجار وذوى الصناعات أوصى بهم خيرا ، وبين له الدور الايجابى الذى يقومون به لخدمة المجتمع ، ثم حذره من انحراف بعضهم فقال :

« ثم استوصى بالتجار وذوى الصناعات وأوصى بهم خيرا : المقيم والمضطرب بماله (٥) والمترفق ببدنه ، فانهم مواد المنافع » .

« وأعلم — مع ذلك — ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا ، وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع (٦) وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم — منع منه . وليكن البيع بيعا سمحا ،

---

(١) الاشراف على الشىء : الاطلاع عليه من فوق ، فالطمع من سفالات الامور من نظر اليه وهو فى أعلى منزلة النزاهة لحقته وصمة النقيصة ، فما ظنك بمن هبط اليه وتناوله .

(٢) لا يزدهيه : لا يستخفه زيادة الثناء عليه .

(٣) البذل : العطاء ، أى : أوسع له حتى يكون ما يأخذه كافيا لمعيشة مثله وحفظ منزلته .

(٤) اذا رفعت منزلته عندك هابته الخاصة كما تهابه العامة ، فلا يجرؤ أحد على الوشاية به عندك خوفا منك واجلالا لمن أجللته .

(٥) المضطرب : المتردد بأمواله بين البلدان ، والمترفق : المكتسب .

(٦) الضيق : عسر المعاملة ، والشح : البخل ، والاحتكار : حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به الا بأثمان فاحشة .

بموازين عدل ، واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمتباع — اى المشترى — فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به ، وعاقبه فى غير اسراف » .

ويوجه الامام على عناية خاصة الى الطبقة المحدودة الدخل او العاجزة عن الكسب فيقول :

« ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين من أهل البؤس والزمنى (١) فان فى هذه الطبقة قانعا (٢) ومعترا ، واحفظ الله ما استحفظك من حقه عليهم واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات صوافى الاسلام — اى أرض الغنيمة — فى كل بلد . فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى ، وكل قد استرعيت حقه .

فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون — أى تكره أن تنظر اليه احتقارا — وتحقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرجع اليك أمورهم ، ثم أعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه (٣) ، فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم ، وتعهد اهل اليتيم وذوى الرقة فى السن (٤) ممن لا حيلة له ، واجعل لذوى الحاجات منك قسما (٥) تفرغ لهم فيه

---

(١) الزمنى : جمع زمين ، وهو المصاب بالزمانة أى العاهة يريد ارباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب .

(٢) القانع : السائل . والمعتر : المتعرض للعطاء بلا سؤال .

(٣) بالاعذار الى الله : أى بما يقدم لك عذرا عنده .

(٤) ذوو الرقة فى السن : المتقدمون فيه .

(٥) لذوى الحاجات : أى المتظلمين تتفرغ لهم فيه بشخصك للنظر فى مظالمهم .

شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من الحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع (١) ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير موطن : « لن تقدس (٢) أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع » .

ويتحدث الامام بعد ذلك الى عامله فى أمور عامة ، تعين الحاكم على النجاح : منها أن يحرص على اصدار حاجات الناس يوم ورودها ، وأن يمضى لكل يوم عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، وأن يجعل لنفسه فيما بينه وبين الله أفضل تلك المواقيت وان كانت كلها لله اذا صلحت النية وسلمت الرعية وألا يطيل احتجابه عن الرعية فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، وأن يحول بين بطانته وخاصته وبين ما ينحرفون اليه من استئثار وتطاول وقلة وانصاف فى معاملة ، وأن يظهر للرعية بعذره ان ظنت به حيفا ، وألا يدفعن صلحا دعاه اليه عدوه ولله فيه رضا ، وأن يحذر مع ذلك كل الحذر من عدوه بعد صلحه وان يحوط عهده بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ، وان يبرىء نفسه من الاعجاب بها ومن حب الاطراء وأن يتحاشى المن على الرعية بالاحسان والعجلة بالأمور قبل أوانها ، والتسقط (٣) فيها عند امكانها ، أو اللجاجة فيها اذا تنكرت (٤) ، أو الوهن عنها اذا استوضحت .

هذه الرسالة تترجم روح التعاليم الاسلامية فى الحكم والادارة الى دستور واضح محدد المعالم ، وتنبع من المعين الأول الذى فجرته آيات القرآن العظيم وسنة الرسول الكريم .

---

(١) التعتعة فى الكلام : التردد فيه من عجز وعى ، والمراد غير خائف ، تعبيرا باللازم.

(٢) التقديس : التطهير ، اى لا يطهر الله أمة الخ .

(٣) التسقط : يريد به هنا : التهاون .

(٤) اللجاجة : الاصرار على منازعة الامر ليتم على عسر فيه . وتنكرت : لم يعرف وجه الصواب فيها .

٢ ــ الطاعة من المحكومين :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (١) »

والطاعة لولى الأمر مستمدة من طاعة الله والرسول ، لأن ولى الأمر فى الاسلام لا يطاع لشخصه ، وانما يطاع لقيامه على شريعة الله ورسوله ، ومن تنفيذه لهذه الشريعة يستمد حق الطاعة ، فاذا حاد عنها أو انحرف سقطت طاعته ولم يجب لأمره النفاذ .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

ــ « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

ولكن ليس على المسلمين واجب الطاعة لمن يتغلب عليهم من غيرهم ، وفى هذا ما فيه من تلقين المسلم عدم الخضوع لحكم الأجنبى وعدم الرضاء به ، والاستسلام له . وحفزه على التمرد عليه والثورة ضده والتخلص من سيطرته وبذل ما يستطيع من جهد فى هذا السبيل ، وقد أمر القرآن المسلمين بالاستجابة الى الرسول صلى الله عليه وسلم اذا ما دعاهم الى ما فيه حياتهم ومصلحتهم ، وبما أن ما خوطب به الرسول فى شئون الدولة مستمر المدى والتلقين بعده ، فان أولى الأمر مقيدون بما فيه مصلحة المسلمين، وحياتهم وخيرهم ، وأنهم ليس لهم أن يدعوهم الى أمر يخالف ذلك ، كما انه ليس على المسلمين أن يستجيبوا الى من يفعل ذلك او يطيعوهم .

يقول القرآن الكريم :

ــ « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (٢) »

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة الانفال : ٢٤ .

وهذا القيد واضح فى جملة « ولا يعصينك فى معروف » الواردة فى آية « الممتحنة »

« يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله (١) » .

فهذه الجملة لاتدع مجالا للشك فى أنه ليس لأولى الأمر أن يأمروا المسلمين بما فيه منكر وإثم وانحراف عن جادة الحق والصالح العام ، وبأنه ليس على المسلمين أن يطيعوهم فى ذلك .

وهكذا تكون الآيتان قد احتوتا تقرير انعقاد عقد ضمنى بين المسلمين وأولى أمرهم ، على الأولين فيه الطاعة للاخرين والتضامن معهم ، فيما فيه الصالح العام والحق والخير والمعروف وعلى الاخرين أن لا يطلبوا ولا يأمروا ولا يدعوا الى ما فيه انحراف عن ذلك ، ومن توابع هذا أو ملهماته منح المسلمين حق الانصراف عن من يسيرون فيهم سيرة باغية من أولى الأمر منهم ، وحق التملل من الخضوع لهم وطاعتهم ، وفى هذا ضمان قوى لصلاح أولى الأمر والتزامهم جادة الحق والمعروف والعدل .

وكلمة « معروف » الواردة فى آية « المتحنة » هى كلمة عامة المعنى ، تتناول كل ما عرف أنه حق وخير وبر وصلاح وكرامة وعدل ، وكل ما هو متسق مع أوامر الله والرسول ونواهيهما وكل ما رأى أهل الحل والعقد أن فيه مصلحة المسلمين وحياتهم وخيرهم وصلاحهم مما ليس فيه نص قرآنى صريح أو سنة نبوية ثابتة (٢) .

---

(١) سورة الممتحنة : ١٢ .

(٢) الدستور القرآنى : ص ٦٧ .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ــ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الله »

وقال ابو بكر الصديق غداة توليه الخلافة :

ــ « انى قدوليت عليكم ولستبخيركم ، فان احسنت فأعينونى، وان أسأت فقومونى ، الصدق امانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عنــدى حتى ارد عليه حقــه ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، ولا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبــلاء ، اطيعونى ما أطعت الله ورســوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

وهذا وذاك يفسران ما قلناه

٣ ــ الشورى :

وردت الشورى صريحة فى القرآن الكريم :

ــ ((والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصــــلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)) .

ــ ((فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظــا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشــاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين)) .

ــ ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون)) .

وثالث هذه الآيات أدل على النظام النيــابى من الآيتين الأولى والثانية فى نظر الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وحجته فى ذلك .

(أ) ان الآية الثــانية فيهــا أمر بالمشــاورة يقتضى وجوبه إكثر ما تدل عليه أن هذا الشىء ممدوح فى نفسه ، محمود عند الله تعالى .

(ب) ان الآية الثانية فيها امر بالمشاورة يقتضى وجوبه على المأمور بالمشاورة وهو الرئيس الذى يلى الحكم — ولكن اذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للامر فماذا يكون اذا هو تركه ؟

(جـ) ان الآية الثالثة تفرض ان يكون فى الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهو عام فى الحاكمين والمحكومين — ولا معروف أعرف من العدل ، ولا منكر أنكر من الظلم .

ويعلق الشيخ رشيد رضا على هـذه الفقرة من كلام الأستاذ محمد عبده بقوله :

« ومعنى الآية على هذا الوجه انه يجب ان تكون قوة المسلمين تابعة لهـذه الأمة التى تقوم بفريضة الدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فهى بمعنى مجالس النواب فى الحكومات الجمهورية ، والملكية المقيدة .

فكأن الآية بيان لكون أمر المسلمين شورى بينهم .

ومجىء النص الأول فى الذكر بصيغة الخبر يؤكد كونه فرضا حتما — كما عهد نظيره فى الأساليب البليغة .

والنص الثانى صريح فى الوجوب ، والضامن له الأمة المخاطبة بالتكاليف فى أكثر النصوص .

وانما الآية الأخيرة تفصيل لكيفية الضمان .

ثم يمضى الشيخ رشيد رضا فى سرد بقية آراء الأستاذ محمد عبده فيقول :

ان كون القائمين بالأمر والنهى أمة يستلزم ان يكون لها رياسة تدبرها . ويكون رئيس هذه الأمة مصدر النظام وتوزيع الأعمال

ومقام الرياسة يختار بالمشاورة — لكل عمل — ولكل بلاد — من يكونون أكفأ للقيام بالواجب فيها ، لتكون أعمالهم مؤدية الى مقصد الأمة العام .

ثم ان كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضى أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة تحاسبها على تفريطها ، ولا تعيد انتخاب من يقصر فى عمله (١) .

والآية الأولى تثبت فى غير شك أن القرآن قد وقف الى جانب الديمقراطية يمتدحها ويحض على القيام بها ، ومن قبل أن تكون هناك دولة عربية — لأن الآية مكية — والسورة اسمها سورة « الشورى » . ولم تكن فى مكة دولة ما قبل أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة — وهذا هو الذى يجعل الدعوة دعوة أصيلة وليست بنت الظروف — انها دعوة الى مبادىء لابد من تحقيقها عمليا فى المستقبل .

وموطن المشاورة ليست العقائد والعبادات وانما هى المصالح الدنيوية فى أمور السلم والحرب السياسية والاقتصادية وما أشبه ، يقول : « والمراد أمر الأمة الدنيوى الذى يقوم به الحكام عادة — لا أمر الدين المحض الذى مداره على الوحى دون الرأى اذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات ، والحلال والحرام ، مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر (٢) » .

ويرى الشيخان أيضا أن الأخذ بنظام المشاورة أصلح وأسلم حتى ولو أخطأت الجماعة الرأى ، فمعنى الآية : دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب فى هذه الغزوة — غزوة أحد — وان أخطأوا الرأى فيها ، فان الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل — دون العمل برأى الرئيس وان كان صوابا لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم ان أقاموا هذا الركن العظيم — المشاورة .

---

(١) تفسير المنار ح جـ ٤ ، ص ٤٥ — ٤٧ .
(٢) د . محمد أحمد خلف الله : القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ص ١٠٢ .

ان الجمهور ابعد عن الخطأ من الفرد فى الاكثر .

والخطر على الأمة فى تفويض امرها الى الرجل الواحد اشـــد واكبر .

والديمقراطية من حيث هى مبدأ سياسى أو اجتماعى دعا اليه القرآن المجيد ، وامتدح القائمين به وعليه .

ان العودة الى الاسلام المصفى ، ترد الثقة والاطمئنـــان الى نفوسنا ، وتنشر الوية السلام فى العالم .

يقول « هو كنج » أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد فى كتابه « روح السياسة العالمية » :

« ان سبيل تقدم الدول الاسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب المفترضة التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شـــيئا عن حيـــاة الفرد اليومية أو عن القانون والنظم السياسية ، وانما يجب ان يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم .

ويقول :

وأحيانا يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أفكار جديدة ، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبـــه الحياة العصرية ؟

والجواب على هذه المسألة هو أن فى نظام الاسلام كل استعداد داخلى للنمو ، وأما من حيث قابليته للتطـــور فهو يفضل كثيرا من النظم والشرائع المماثلة .

والصعوبة لا تنشأ من انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى ، وانما فى انعدام الميل الى استخدامه .

ويقول :

ـــ وانى أشعر أننى على حق حين أقرر ان الشريعة الاسلاميـــة تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض والرقى .

لماذا تأخر المسلمون .. ؟

ان روح الاسلام — رغم كل التحديات والضربات التاريخية الهائلة — لم ينطفىء نورها فى قلوب المسلمين ، لقد توارت واحتجبت بيد أن شعاعها لا يزال يلمع فى الظلام الأسنع الرهيب ، ويتسلل هنا وهناك هاديا وداعيا .

لقد أبدع المسلمون حضارة سامقة ، ومدنية وارفة ... ولكنهم انتكسوا ، وأفل نجمهم الى حين .. لماذا ؟

يجيب على ذلك الكاتب النمساوى المسلم محمد اسعد بقوله (١) :

« ان الحياة الاسلامية فى الواقع تظهر على كل حال فى أيامنا الحاضرة بعيدة جدا عن الامكانيات المثلى التى تقدمها التعاليم الدينية فى الاسلام ، من ذلك مثلا ، ان كل ما كان فى الاسلام تقدما وحيوية ، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا ، وكل ما كان فى الاسلام من قبل ، كرما وايثارا أصبح اليوم بين المسلمين حبا فى المظهر ..

ويقول : ان ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين ، وذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئا فشيئا يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية، فنتج من هذا أن الاسلام ظل بعد ذلك موجودا ، ولكنه كان جسدا بلا روح ثم ان العنصر الذى خلق قوة العالم الاسلامى من قبل ، هو المسئول عن ضعف المسلمين ؟ فان المجتمع الاسلامى بنى منذ

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق : ص ١١ .

أوله على أسس دينية ، وضعف هذا الأساس ، قاد بالضرورة الى ضعف البناء الثقافى ، وربما كان سببا لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهما لتعاليم الاسـلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العلمية ، ازددت رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين الى هجر تطبيقها تطبيقا تاما على الحياة .

لقد قضى الاسلام على الوثنية وحرر النفوس من الخوف ، وامر الا يخشى المؤمن الا ربه ، ولا يتـذلل الا له وحـده ، ولا يطيع الا من أطاعه ، كما أوجب عليـه أن يعصى من عصـاه ، وان يكون عزيزا لا يعرف فى الحق لومة لائم ، وأوجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كذلك امر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان ، ولكن قد انعكست فى نفوسهم معايير الخلق، فأصبحت المخـازى عندهم موضعا للفخر !! « فصـاروا يسمون التصـغر أدبا ، والتذلل لطفـا ، والتملق فصـاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة تواضعا ، والرضا بالظلم طاعة ، كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورا ، والخروج عن الشأن الذاتى فضولا ، وبعد النظر الى الغد أمدا طويلا ، والاقدام تهورا ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول قحة ، وحب الوطن جنونا (١) .

هذا هو المجتمع الذى عاش فيه أمثال جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى وغيرهما ، والذى أدرك فيه المصلحون أن لا أمل فى نهضته طالما اختلت فيه معايير الأخلاق ، ففرقت بين آحاده ، ومهدت بذلك لانحلال الأمة وغلبة الأجنبى عليها .

وقد وصف جمال الدين الأفغانى هـذا المجتمع وصفا دقيقـا مبينا سبب سقوطه تحت ضربات العدو ، فقال على لسان تلميذه

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى : أم القرى ص ١٣٤ .

« وان شئت فتخيل وقحين بذيئين متكبرين ، « كل لا يستحسن الا فعل نفسه » لجوجين خائنين غادرين كاذبين ، منافقين ، هل يمكن أن يجمعهما مقصد ، أو توجد بينهما غاية » ؟

اليس كل وصف على حدته قاسيا بانتباذ كل من صاحبه ، وان لم تكن داعية ؟ .. هذه الرذائل اذا فشت فى أمة لقضت بناءها ونثرت أعضاءها ، واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها ، لتأخذها بالقهر وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر ، فان حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة (١) .

كذلك رسم الأفغانى صورة صادقة تكشف عن طباع هؤلاء المغرورين بالأجانب ، والمعترفين لأنفسهم بالضعة والعجز ، فهم فى رأيه أشداء فيما بينهم ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وهم ذوو بأس شديد بعضهم على بعض ، بينما يرتمون على أقدام الأجانب ذلا وصغارا ، « يفتخرون بالانتماء اليهم ، ويمهدون السبيل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من احشائهم ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا ، واذا نطق الأجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ، ونفائس الحكم ، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق ، وكشف لهم دقائق الأسرار ، عدوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان حالهم ومقالهم : ليس فى الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد .

ان الاسلام ، جهاد لا يهدأ ، وعمل لا يفتر ، وطاعة متصلة ، وعزة قائمة ، فاذا أردنا أن نعود الى الاسلام المصفى ، عبادة

---

(١) العروة الوثقى : ص ١٢٨ .

وتشريعا ، وعملا للدين والدنيا ، وسلاما وسعادة للبشر فان ارادة الله معنا ، ولا غالب لنا يومئذ .

لقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ، رجلا يتعبد بالحصى ويقول :

— « اللهم زوجنى الحور العين » .

فقال الرسول :

— « بئس الخاطب أنت ، اتخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى ؟! »

غفر الله لهذا الأعرابى الساذج ، فلقد ورث المسلمون اليوم ، عقليته وفتور همته ، فكلهم اليوم هذا الأعرابى الحالم !

ان الاسلام اخلاق ، وعبادات ، ونظم ، ومبادىء وتشريعات ، ولكنه من قبل هذا وذاك ، قوة ذات بأس وصولة ، قوة تعلو بها كلمة الله ، وتصان ، وتصان بها الأخلاق والعبادات ، وتتحرر الأوطان .

يقول الرسول القائد العظيم :

« أنا نبى الرحمة .. أنا نبى الملحمة .. أنا الضحوك القتال » .

انه صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة بكل ما فى الرحمة من معان سامية ، ولكنه اذا جد الجد ، أو خدش الحق فهو نبى الملحمة حتى تعلو كلمة الحق والايمان .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى » .

ويقول :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق تداعى الأكلة على قصعتها .

فقال قائل : أو من قلة يومئذ يا رسول الله !

قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . !

قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟

قال : حب الدنيا ، وكراهة الموت » .

صورة صادقة ، للتحالف العالمى ضد الاسلام ، التحالف الاستعمارى الذى يستهدف تمزيق حريتنا واستعباد بلادنا .

ويوضح الأستاذ الشيخ محمد عبده سر تأخر العالم الاسلامى فيقول :

« كان (١) الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له .

ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعبن طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب أعجميا .

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه — وبئس ما صنع بأمته ودينه — أكثر من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون الوية

---

(١) الاسلام دين العلم والمدنية : ص ١٣٧ .

الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل الهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره .

أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبيح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يتدرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينتقض ليقيموه .

« نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وانما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان وانه لا حيلة فى اصلاح حال أو مآل ، وأن

الاسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا ان يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للأيدى عن العمل .

والعامل الأقوى فى حمل النفس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى — أمور اذا اجتمعت اهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هـذه السياسـة — سياسة الظلمة واهل الأثرة — هى التى روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم املا كان يخترق أطبـاق السموات ، واخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام وانما حفظ من اعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعـدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعـاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شىء آخر سـموه اسلاما والقرآن شاهد صدق ((**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**)) . يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنـه لاهون ، وعما جاء به معرضون .

وطال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه وولع شهواتهم بالدفاع عنـه ، وقد حدثت عنه مفاسـد يطول بيانها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به الى أطباق السماء ، ليقف على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سرا من اسراره فى خليقتــه ، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد ، فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العالم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج .

وليس شك أن سبب تأخر العالم الاسلامى هو تركه روح الدين الحق ، وتشبثه بالعقائد الباطلة ، والخرافات والأوهام .

زار توفيق يزدى العلامة جوستاف لوبون فى باريس ، فقال له لوبون :

« ان سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشـــبثه بالعقائد الباطلة ، فان الدين قوة أدبية لا يستهان بها ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر ، وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة وعاداتكم المرضية .

ثم أردف قائلا : وعلى الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى أوربا لاقتباس أنوار العلم ، أن ينتخبوا من العلوم والفنـــون والأفكار والعادات ما يفيد وطنهم ، ويوافق أخلاقهم .

ولما ودعه كتب له بخطه :

« ان الشعب الذى يريد الرقى يجب عليه الا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه أى يجب أن يحترم تقاليده ويراعيها (١) » .

---

(١) عن مجلة رمسيس ، السنة الثالثة ص ٦١٩ .

أين الطــريق .. ؟

ان الاسلام رسالة عالمية تسوس الناس جميعا ، وتفصل في قضاياهم وتبنى حيــاتهم وتهــديهم الى خير الســبل في التشريع والتقنين ، وأكمل السياسات في الحكم والتنظيم وأعالى المثاليــات في الأخلاق والاجتماع ، وأسمى المبادىء في الاقتصاد والآداب .

ولا ينهض الاسلام الا مرتكزا على هذه الأنظمة كافة ولا يثب الا بقوى المسلمين عامة .

قال الكاتب الانجليزى هـ . ج . ويلز :

« كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من اطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبــال به ، لأن الدين الذى لا يسير مع المدنيــة جنبا الى جنب لهو شر مستطير على أصحابه ، يجرهم الى الهلاك .

ان الديانة الحقة التى وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هى الديانة الاسلامية واذا اراد الانسان أن يعرف شيئا من هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات علمية ، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع . فهو كتاب دينى ، علمى ، اجتماعى ، تهذيبى ، فلسفى ، تاريخى ، وكثير من أنظمته وقوانينه ، تستخدم حتى وقتنا الحالى ، وستبقى مستخدمة حتى قيام الساعة .

وان طلب منى أحــد أن أحدد له الاســلام ، فانى أحــدده له بالعبارة الآتية :

« الاسلام هو المدنية » .

ويقول الفيلسوف الانجليزى توماس كارليل :

« ان في الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأحبها وهى المساواة بين الناس أمام الدين . والاسلام لا يكتفى بجعل الصدقة ســنة

محبوبة بل يجعلها فرضا على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام ويقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة تعطى للفقراء والمنكوبين والمساكين .

وما هذا الا صوت الانسانية ، صوت الرحمة والاخاء يصدر من فؤاد ذلك الرجل — الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتحدث عن أثر الاسلام فى حياة العرب ، فيقول :

لقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور ، فقد كانت فئة الأعراب جوالة تجوب الصحراء منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله هذا النبى برسالة من عنده ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبحت لدولة العرب قدم فى الهند ، وقدم فى الأندلس ، وأشرقت دولة الاسلام قرونا طويلة على نصف المعمورة » .

يرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن اصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر من اصلاحهم من طريق الاصلاح المعتمد على مجرد العقل ومقياس المنفعة والتقليد الأوربى ، وأن هذا الطريق هو الذى سلكه جميع المصلحين المسلمين ، يقول : « ان الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامة أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الأمة .. واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق ، وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من أحداث ما لا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟» .

وعلى هذا الأساس فى التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس ، حتى يصلح النفوس من هذا الطريق ، بالتوسع فى التاريخ الاسلامى ، وبث مبادىء الدين الصحيح .

ويقول الغربيون ان السبب فى تأخر أهل الشرق ايمانهم بالقضاء والقدر ، فان ذلك دفعهم الى التواكل .

تعرض الأستاذ الامام لبحث هذا الموضوع ، فذكر بأن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالقدرية المأخوذة من فكرة الجبر ، أو القضاء .

ويؤكد ان مفكرى المسلمين من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الانسان فى الاختيار . وهو يقرر فى رسالة « التوحيد » أن الانسان(١) يدرك أعماله الاختيارية ويزن عواقبها بعقله ، وينسب اليها القيم عن طريق ارادته ، ويقوم بها بدافع من نفسه ، وأيا ماكان فالانسان يعلم بالتجربة أن هناك قوة أعظم من نفسه هو مسئول أمامها . وعندما يقول القرآن « ما تصنعون » و « بما كسبت أيديكم » فان قوله هذا يتضمن المسئولية . ومن ثم الحرية اللازمة ، لأنه ان يكون ثمة عدل فى اعتبار الانسان مسئولا عن أحوال تفرضها عليه ارادة أو قوة خارج نفسه .

ويستدل الأستاذ الامام على هذا بمبدأ « المجاهدة » .

فقوله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

يبين أن هدى الله ميسر لمن يجاهدون فى سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب .

وكما ان الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية . والناس

---

(١) رسالة التوحيد : ص ٨٩ .

قادرون على معرفة هـذه الشرائع الالهية بالتـدبر ، وعن طريق الوحى ، ولكنهم أحرار حين يعملون بهـا ، أو يخرجون عليهـا ، كحريتهم فى اطاعة القوانين الدنيوية أو عصيانها ، واذا خـرقوا القانون فهم معرضون فى كلتا الحالتين لقضاء السلطة الأخلاقية وعقابها ، والأمم تصل الى الرفعة أو تقصر دونها ، حسب اختياراتها الأخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقى العام لسياستها الاجتماعية . وهكذا . فقوله تعالى :

((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) .

يتضمن أن النظام الذى رسمه الله يقـوم على قانون العـلة والمعلول . ولكن اختيار الطريق والمسئولية ملقيان صراحة على الناس بسبب حريتهم التى منحها الله اياهم . والله ينفذ مشيئته فى الحياة عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض ، ومع ذلك ففى هذا التدافع التاريخى يستطيع الانسان أن يهتدى بالتجربة الى سبيل الحق والصواب .

وهى قوله تعالى :

((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)) .

لقد وهب الله الانسان الحس والعقـل وفى هـذين الكفـاية ليستكشف ما هو ضرورى للمحافظة على النفس . وليميز الصواب من الخطأ ، وقد وهب الانسان كذلك العاطفة والشعور اللـذين يدفعان ادراكه العقلى ووهب الارادة الحرة ليتصرف فيما يصـل اليه العقل الذى تغذيه .

وزعم بعض الناس أن الإيمان بالقدر ينافى الحذر ، فقيل لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، عندما امتنع عن دخول مدينة انتشر فيها الطاعون :

ـ أفرارا من قدر الله ؟

فقال عمر : نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله .

وهو رضى الله عنه يشير بهذا الى أن قـدر الله تعالى محيط بالانسان فى كل الأحوال وأنه لا يمنع الأخذ بالأسباب ، وأن ذات الأسباب مقدورة ، فيجب علينا الأخذ بها والسير فى طريقها اقامة للتكليفات وتحملا لتبعات الأشياء .

وزعم الذين اشتركوا فى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنـه ، انهم ما قتلوه ، انما قتله الله ، وحين حصبوه قال له بعضهم :

ـ الله هو الذى يرميك .

فقال عثمان : كذبتم ، لو رمانى الله ما أخطأنى .

وما كانت هذه الظنون الا بعض ما زرعه أهل الديانات الأخـرى فى قلوب المسلمين ، وكان الكلام فى القدر يشتد كلما اتسع نطـاق الجدل والفتن ، ولذا كان الكلام فيه على عهـد على بن أبى طالب رضى الله عنه أشد واحد .

جاء فى كتاب « نهج البلاغة » وشرحه لابن أبى حديد :

قام شيخ الى على ، وقال :

ـ أخبرنا عن مسيرنا ، أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال على :

ـ والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما وطئنا ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ :

ـ فعند الله احتسب عنائى ، ما أرى من الأجر شيئا .

فقال على :

ــ مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى سيركم وانتم سائرون فى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين .

فقال الشيخ :

ــ وكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟

فقال على :

ــ ويحك . لعلك ظننت قضاء لازما وقــدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عباد الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عند الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها . ان الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف تيسيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع كارها ، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .

((ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار)) .

فقال الشيخ :

ــ فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا الا بهما ؟

فقال على :

ــ هو الأمر من الله تعالى والحكم . ثم تلا قوله تعالى :

((وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه)) .

فنهض الشيخ مسرورا .

ان الذى يقول ان الاسلام يحث أبناءه على التواكل أخذا من عقيدة القضاء والقدر يخالف الحقيقة ، فالاسلام أراد أن يقول ان جميع القوى البشرية تنتهى عند حد ، وأن الانسان يتجلى عجزه حين لا يفهم ربط الأسباب بالمسببات ، وحينئذ يكون جميع النـاس مؤمنين بالقضاء والقدر ، فقصر هذا الأمر على الشرقيين ، أو على المسلمين خطأ كبير . وان كل ما جاء به الاسلام من قرآن وسـنة وكذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن فيها أى شيء من التواكل والكسل وترك الأسباب ، ولم يفهموا عقيدة القضاء والقدر بالدعوة الى التكاسل والاهمـال وترك الأسباب ، فان آيات كثيرة وردت فى القرآن المجيد تدعـو الى العمل :

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)) .

((وان ليس للانسان الا ما سعى)) .

وكذلك فى سنة الرسول وفى أحاديثه وفى سيرته العملية ، كان صلى الله عليه وسلم يعد لكل شيء عدته فى السلم والحرب . فكيف يجوز أن يتهم الاسلام بأنه يجعل عقيدة القضاء والقـدر للتواكل والكسل ، القضـــاء والقـدر يدعوان الى التوكل على الله ، لا على التواكل .

وعقيدة القضاء والقدر كما فهمها الرسول وكما فهمها أصحابه وعملوا بها انما هى نعمة كبرى على معتنقيها ، فانهـا تبعث فيهم روح الاطمئنان والاتكال على الله والاسـتقرار النفسى ، وتملأ قلب معتنقيها بالهدوء والراحة وتبعد عنهم القلق والاضطراب النفسى ، والخوف والتردد ، وتحفظ عليه أعصابه وراحة باله ، لأن الانسان فى هذه الحياة الدنيا معرض دائما لكثير من المصـائب وأنواع من الابتلاء ، فان لم يكن محصنا بهذه العقيدة راضيا بقضاء الله خاضعا

لقدره فانه يرهق نفسه ويحطم اعصابه ، وقد يفقد عقله ، اما المؤمن بها فانه يتلقى جميع ذلك بالصبر والجلد والرضى فيحفظ صحته وأعصابه وعقله ويكون معتقد هذه العقيدة راضيا غير متردد ناجحا فى أعماله اليومية والتجارية فى السلم ، شجاعا باسلا فى الحرب(١) .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى كتابه « الاسلام عقيدة وشريعة » (٢) :

« الاسلام يرى أن الانسان ذو حرية واختيار فى حياته ، فهو يفعل الخير مختارا فيثاب ، ويفعل الشر مختارا فيعاقب ، وبتلك الحرية ، وهذا الاختيار كلفه الله وارسل اليه الرسل لتهديه وترشده ، ثم تركه وما يختار لنفسه من مسلك الخير أو الشر ، لا يدفعه بقوة خارجة عن نفسه الى خير أو شر ، ولو شاء ذلك لخلقه بطبيعة الخير فلا يعرف شرا ، أو بطبيعة الشر فلا يعرف خيرا ، وعندئذ لا يكون هو الانسان الذى جعله خليفة فى الأرض ، وكلفه بدينه وشرائعه ، واعد له الثواب والعقاب ، ولكن خلقه مختارا فى أفعاله ، وبذلك يكون جزاؤه فى يوم الدين تبعا لما يختاره لنفسه فى الحياة ، يكون صورة من اللذة والألم ، مساوية لما حمات نفسه من بواعث الخير ، وبواعث الشر :

« هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (٣) .

« ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (٤) .

والقرآن ملىء بمثل هذه النصوص الدالة على أن الانسان مختار فى فعله ، ليس مقهورا ولا مجبورا على خير أو شر .

---

(١) زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والاسلام ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .
(٢) ص ٤٥ .
(٣) سورة الاعراف : ١٤٧ .
(٤) سورة الشمس : ٧ — ١٠ .

وأما القضاء والقدر اللذان ورد في القرآن ذكرهما ، وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الانسان ومسلكه في الحياة — سوى النظـام العـام الذى خلق الله عليه الكون ، وربط فيه بين الأسـباب والمسببات ، والنتائج والمقدمات ، سنة كونية دائمة لا تتخلف وكان من بين تلك السنة ، أن خلق الانسان حرا في فعله ، مختارا غير مقهور ولا مجبور . وقديما اعتـذر المشركون عن شركهم بأنهم مجبورون بمشـيئة الله لشركهم ، فأنكر الله عليهم ، وأعلمهم أن حجته عليهم قائمة ، بما منحهم من عقل ، وأرسل اليهم من رسل : **« سـيقول الذين أشركوا ، لو شـاء الله ما أشركنـا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسـنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعـون الا الظن وان أنتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين (١) »**

نعم يعلم الله — بشمول علمه — ما سيكون الانسان باختياره من هدى أو ضلال ، وخير أو شر ، وليس في علم الله بذلك شيء من معاني القهر والالزام ، وانما هو مجرد انكشاف ما وقع وسيقع على السنة الدائمة التي رسم ، وهي سنة الاختيار ، التي بنى عليها التكليف والثواب والعقاب .

واذا فلا يسمح الاسلام أن يضل الانسـان أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه ، ثم يعتذر بالقضاء والقدر ، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف ، وكان بعث الرسل وانزال الكتب ، ودعوة الانسـان الى دين الله ، ووعـده بالثـواب لأهـل الخـير ، وبالعقـاب لأهل الشر — باطلا وعبثـا — لا يتفق وحكمة الخـالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده » .

هذا رأى الاسلام في اختيار الانسان وجبره

(١) سورة الانعام : ١٤٨ — ١٤٩ .

وهب الله الانسان الحس والعقل وفى هذين الكفاية ليستكشف ما هو ضرورى للمحافظة على النفس ، وليميز الصواب من الخطأ ، وقد وهب الانسان كذلك العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلى ووهب الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه العقل الذى تغذيه .

يقول المفكر الاسلامى « محمد اقبال » :

« ان مصير اى شىء وأى شخص ليس قضاء صارما يعمل من خارج كأنه سيد آمر بل ان الغاية الذاتية لشىءمن الأشياء ، انه امكانياته التى يمكن ادراكها ، والتى قد تحقق نفسها دون أى شعور باكراه خارجى ... واذن فقوله تعالى : « **انا كل شىء خلقناه بقدر** (١) » يعنى أن كل مخلوق قد وهب « امكانية محدودة » « هو » حر فى تحقيقها أو عدم تحقيقها » .

ويرى اقبال فى قدرة الانسان على الخلق دليلا على حريته ، لأن كل نشاط خالق يجب بالضرورة أن يكون حرا ، فالخلق يقابل التكرار الذى هو صفة الفعل الآلى .

وهكذا يرفض اقبال كل الصور المتطرفة من فكرة القضاء الأزلى ، سواء أنسبت الى تقدير الله أم الى الضرورية الآلية .

ويرجع عنصر القدرية فى التفكير الاسلامى الى ما حدث من فرض التفكير الفلسفى اليونانى على الآراء الدينية الأصلية للاسلام ، فان فلاسفة المسلمين لما عرفوا ما فى التراث اليونانى القديم من الوصول عن طريق سلسلة من العلل ، الى علة أولى نهائية ، مالوا الى اعتبار العلة الأولى المطلقة العلة الوحيدة ، ومن ثم أنكروا وجود الأسباب الثانوية الوسيطة جاعلين الله المنشىء الوحيد المباشر لكل ما يحدث فى الكون . وقد عجل عاملان آخران بنمو عقيد القدرية : أحدهما ، المصلحة السياسية التى كانت تستهدف تسويغ الأخطاء السياسية باضافتها الى ما خطه الله فى قضائه .

(١) سورة القمر : ٤٩ .

والآخر ما أصاب الاسلام نفسه من تناقص فى قوته الحيوية الدافعة . هذا التناقص الذى أحدث ضعفا وجمودا يوافقان الايمان بالقضاء والقدر .

وصفوة القول ان عقيدة القضاء والقدر نصر لمعتنقها وان الادعاء بأنها تدعو الى التواكل والكسل ادعاء باطل .

يزعم كثير من مؤلفى الأفرنج أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص « القرآن » التى يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون .

ان هذا الزعم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون .

لقد عنى (١) الاسلام عناية كاملة بالارشاد الى الوسائل التى تطهر المجتمع من الجهل ، والتى تطهره من المرض ، فهو قد حارب الجهل وتتبعه فى كل وكر من أوكاره وفى كل لون من الوانه ، حارب جهل الشرك بالتوحيد ، وبث فى النفس والآفاق دلائله ، ولفت الانسان اليها ، وحثه على النظر والتفكير فيها ليؤمن بأن العظمة التى يخضع لها ليست لأحد سواه ، فلا يعترضه فى طريق الكمال ما ينسجه الانسان حوله من صور العظمات الزائفة .

حارب جهالة التقليد وأنكر على الانسان أن يسلم عقله لغيره ، وأن يقف فى عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عندما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات . حارب جهالة الأمية وأوصى بتعلم القراءة والكتابة ، ورفع من شأن التعلم .

ولابد هنا من وقفة يسيرة لنرى مبلغ عناية الاسلام بمحو الأمية والارشاد الى وسيلته ، وحسبنا فى ذلك أن يكون أول نداء الهى

(١) الاستاذ الشيخ محمود شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ٦٠ وما بعدها .

يفتتح به الله باسم « الربوبية » وحيــه الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، تلكم الآية الكريمة :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١) » .

يأمر بالقراءة . والقراءة سلم المجد ، وطريق العلم والمعرفة ، ثم يرشــد الى الاســتعانة عليهــا باسم « الرب » مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق ، فيشعر الانسان بعزة شأنها ورفعة قدرها ، وأنها من الشئون العظمى ، ذات البــال والخطر ، ثم يذكر خلقه وتكوينه فى هذا المقام ويردفه بنعمة العلم : **«الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما يعلم»** وبذلك يسوى بين نعمة الخلق والايجــاد ، ونعمة العلم ، ويكون ذلك ايمــاء بأن المخلوق الجــاهل لا اعتــداد بوجوده فى هذه الحياه . وتنويها بشــأن القلم ومــكانته فى العلم والمعرفة يقسم به الله فىمعرض تبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم، من أقدح التهم الباطلة التى ألصقها القوم به عليه السلام ، وهى تهمة الجنون .

« ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) » .

وكما يطلب القراءة على الاطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص، يطلب العلم والنظر على الاطلاق ، دون تقييد ، بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) » .

ويرشدنا هذا الاطلاق الى أن « العلم » فى نظر القرآن ليس خاصا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام ، وانمــا العلم فى

---

(١) سورة العلق : ١ — ٥ .

(٢) سورة القلم : ١ — ٢ .

(٣) سورة الزمر : ٩ .

نظره هو كل ادراك يفيد الانسان توفيقا فى القيام بمهمته العظمى التى ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه . وجعل خليفة فى الأرض ، وهى عمارتها ، واستخراج كنوزها ، واظهار أسرار الله فيها .

فادراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر ، وما تستنبت به الأرض وتحيا علم .

وادراك ما يصلح الحيوان ، ويستمر به نسله ، وتتصل قوته ، علم .

وادراك الطرق المشروعة التى تحصل الأموال ، والتى تنظم بها مواردها ومصارفها ، علم .

وادراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعها وكيفياتها وتوزيعها ، علم .

وادراك الأمراض وعللها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها ، علم .

وادراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم ، حفظا للأوطان ، ودفعا للعدوان بما يرهبهم ، علم .

وقد جاء الايحاء بهذا كله واضحا جليا فى القرآن الكريم ، وبه كان العلم — بمعناه العام الشامل . العنصر الأول من عناصر الحياة فى نظر الاسلام .

وقد أدرك المسلمون الأولون ايحاء القرآن فى كل ذلك ، فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته فى سعادة الأمم والأفراد .

كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فجدوا فى محو أميتهم بكل الوسائل حتى أطلقوا سراح الأسير اذا هو علم عددا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وجعلوا تعليم القرآن مهرا فى الزواج وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر فى الكائنات ، فأدركوا منها ما يسعدهم فى الحياة ، ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله .

رفعوا بالعلم مكانة الخامل ، وكان فيما بينهم نسب الوضيع ، وغنى الفقير ، وقوة الضعيف . وفى بطون التاريخ والمكتبات الاسلامية والعالمية من المؤلفات والمترجمات من شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة ما يشهد لهم بالتفوق العلمى ، ويشهد لكل جيل بمنهجه فى علمه ومعارفه التى وصل اليها بجهوده وتفكيره دون الوقوف عندما ترك السابقون ، بل نظروا وبحثوا ، واختاروا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة ، وكانوا حقا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله تعالى : ((**خير أمة أخرجت للناس** (1))) تسلك الى الخير طريقة ، وتسد دون الشر سبيله .

هذه مكانة العلم فى بناء المجتمع كما يقررها القرآن ويوحى بها لقد تخلفنا ، وضعفنا ، يوم أن تركنا ديننا الحق .

اننا نستطيع بضربة واحدة أن ندير محركات قوانا من جديد ، فبلادنا الاسلامية هى محور الأرض وقلب العالم ، ومواردنا هى التى تدير عجلات الحضارة ، وديننا — من وجهتيه الروحية والمادية — لا يزال — بالرغم من العقبات الهائلة التى خلفها تأخر المسلمين — أعظم قوة ناهضة عرفها البشر .

ان الأمة الاسلامية ، يوم تعود الى دينها ، ستكون خطرا على النظام الجاهلى الذى بسطته الامبريالية والاستعمار فى الشرق والغرب وأن تحبط مساعيهما .

وقد وصف هذا الخطر الفيلسوف محمد اقبال فى قصيدته الرائعة « برلمان ابليس » على لسان ابليس ذكر فيها أن الشياطين وزملاء ابليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه وما يتوجسون من خيفة على نظامهم

(1) سورة آل عمران : 110 .

الابليسى ومهمتهم الشيطانية فتذكروا فى فتن واخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم .

وقال ابليس : ان كنت خائفا فانى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجـال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا ، لا يخفى عن الخبير المتفرس ان الاسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل

أنا لا أجهل أن هـذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا وانهـا فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر وأن علماء الاسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضىء لهـا العـالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها الى شريعة « محمد صلى الله عليه وسلم » .

انى أحذركم وأنذركم من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) حامى الذمار حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سـلطانا على صعلوك يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقيا صـافيا ، ويجعل أصـحاب الثروات والملاك مستخلفين فى أموالهم (١) ، أمنـاء الله وكلاء على المال . وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشـد خطرا ممـا أحدثه هذا الدين فى نفوس العرب فساروا وأبدعوا حضارة راقية ، ومدنية سامقة .

---

(١) « أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » : « الحديد » .

وبعـــد ...

فأين الطريق ؟!

ان طريق الســعادة والهـدوء والطمأنينـة والأمن والرخاء ، واضح لا التواء فيه . انه التمسك بالقرآن المجيـد فهو يهـدى التى هى أقوم .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « بدأ الاســلام غريبـا وسيعود غريبـا كما بدأ ، فطـوبى للغرباء » .

قالوا :

— ومن الغرباء يا رسول الله ؟

قال :

— الذين يصلحون ما أفسد الناس .

يقول الامام المراغى فى تفسيره : سيعود الاسلام غريبا فى سرعة انتشاره فى العـالمين ، كما انتشر أولا فى صـورة رائعة سريعـة ، يؤيد ذلك قوله تعالى :

« يريدون أن يطفئـوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون » .

والنور هو القرآن وهو محمد « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »

ويوم يعم نور الاسلام العالم ، سينعم بالحق ، والعـدل . والحرية . والسلام .

فهرس الكتـــاب

كتب للمؤلف

● الأنبياء فى القرآن المجيد	دار الشعب
● المدينة المنورة	«
● رابعة العدوية	«
● القرآن المجيد	«
● السيدة زينب	«
● مواقف حاسمة فى تاريخ محمد بن عبد الله	«
● المشكلات العالمية المعاصرة	مكتبة الانجلو المصرية
● صور من الجزائر	« «
● التسلل الاسرائيلى فى افريقية	« «
● اندونيسيا المعاصرة	« «
● المغرب الأقصى	« «
● جنوب الجزيرة العربية	« «
● العدالة الاجتماعية عند العرب	« «
● طريق الانسان العربى الجديد	« «
● أورشليم قاتلة الأنبياء	« «
● باكستان المعاصرة	« «
● الفرد والمجتمع فى الاسلام	« «
● الديمقراطية عند العرب	دار احياء الكتب العربية
● المجتمع العربى	دار المعارف
● نزع السلاح	القومية للطباعة والنشر
● حق تقرير المصير	« «
● الجزائر ـ كفاح أمة ومستقبل شعب	« «
● مشكلات عربية	« «
● افريقية فى طريق الحرية	« «
● قضية عمان	« «
● بترول العرب	« «
● تونس المعاصرة	« «

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠